الفصل الثاني

فن الطرد

صورة الطرد قبل أبي نواس:

قال ابن جِنّي في الخصائص:

(أصـل موضـع ـ طرد ـ في كلامهم التتـابـع والاستمرار من ذلك طردت الطريدة إذا اتبعتها واستمـرت بين يديك)[1] وفي اللسـان[2]: الـطرْد والـطرَد الإبعـاد. وطردت الإبل طرْداً وطرَداً أي ضممتها من نواحيها ـ والطريدة ما طردت من صيد وغيره، وأيضاً ما طردت من وحش ونحوه.

والـطرد ضرب من الصيد قديم عند العرب، وتعتبر مهنة الصيد من أقدم المهن إن لم تكن أقدم مهنـة زاولهـا الإنسان حيث كان يصارع الكائنات الأخرى فيما يدعوه «هوبز» بحرب الأحياء على الأحياء. ومع الزمن وبفضل ما يتميز به الإنسان من ذكاء وحيلة استطاع أن يطور أساليب صيده من فتـك وهتك وتخدير وتسميم ونصب الشراك والشباك واحتفار الزبى أو الرمي بالسهام والبندق، أو الختـل بالغنـاء والصفير أو القـاء الأوهات في حلوق الحيوان أو بالنار، أو استعمال الطير الجارح والسبع الضاري في القنص والصيد وائتناس بعضها لمنفعته وفائدته[3].

وكـان الصيد عنـد العـرب في الجاهلية حرفة وهواية، حرفة لغاية معيشية ينتفع بها الصائد، وهواية للذة والمتعة للملوك والرؤساء، ومهما يكن فقد كان الصيد صنو الغزو في كونه أحد مصادر الرزق، في حالة ما إذا كان احترافاً ومهنة، إلا أن الغزو كان أرقى وأسمى من مهنة الصيد.

---

(١) المزهر للسيوطي ١/٢٢٦.

(٢) لسان العرب (طرد).

(٣) المصايد والمطارد لكشاجم ص٤٦، والصيد والطرد عند العرب ص٧ لمؤلف مجهول بتحقيق ممدوح حقي.

obeikandi.com

وعلى حين كان الجاهليون يفخرون بالغزو ويتباهون، وجدناهم يزرون على من يتخذ الصيد مهنةً وحرفة قال الجاحظ: (وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد..)[1] ولذلك لم يكن السادة هم الذين يمتهنون الصيد، إنما كانوا يمتهنون الرئاسة أو الغزو أو التجارة يقول شوقي ضيف: (ويظهر إن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم إنما كان هم فقرائهم ومعوزيهم ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم)[2]. وبالنظر إلى شدة اعتيادهم على الصيد، حرفة ومعاشاً للفقير المعوز، أو هواية ولذة للسادة والرؤساء، اعتقدوا أن أكل لحم الصيد، وخاصة الحيوانات المفترسة يزيد في الشجاعة[3] وهكذا وجدنا أمرأ القيس يصف شيخاً من بني ثعل يصيد ليكسب عيشه[4]:

رب رامٍ من بني ثعلٍ متلجٍ كفّيه في قَتَرهْ[5]
فهو لا تنمي رميّتُهُ[6] ماله لا عُدّ من نفَرهْ
مطعَم للصّيد ليس له غيرَها كسبٌ على كِبَرهْ

كذلك سمى أمرؤ القيس الصيد لذة:

كأني لم أركبْ جواداً للذةٍ ولم اتبطنْ كاعباً ذاتَ خلخالِ

كما قرنت الخرنق أخت طرفة في رثاء زوجها الفروسية بالصيد[7] فليس هناك فرق في لذة الصيد بين صعلوك متشح بالاطمار. وملك جبار، فينكفىء الصعلوك غانماً، وينكفىء الملك غارماً، وهما مشتركان في لذة الظفر، ولا مؤونة على ذي المروءة أغلظ تكلفاً من آلات الصيد لأنها خيل وبزاة وفهود وكلاب ويحتاج في كل قليل إلى تجديد، ومن هنا قيل لا يشغف بالصيد إلا سخّي[8].

---

(١) الحيوان ٢/٣٠٩.

(٢) العصر الجاهلي ص٨٠.

(٣) بلوغ الأرب ٢/٣٢٣ للألوسي.

(٤) ديوان امرىء القيس ص١٢٣ بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

(٥) متلج كفيه في قتره: مدخل كفيه في القترة، وهي البيت الذي يكمن فيه الصائد للطرائد.

(٦) لا تنمي رميته: أي لا تنهض بالسهم وتغيب عنه وإنما تسقط في مكانها لإصابته مقتلها.

(٧) الصيد والطرد في الشعر العربي ص٥١ لعباس مصطفى الصالحي.

(٨) البيزرة، لأبي عبدالله الحسن بن الحسين، ص٢٠.

وكان حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، عليه الصلاة والسلام صاحب صقور، وكان أعز فتى في قريش وحين علم بما نال الرسول من أذى على يد أبي جهل ذهب إليه حمزة وهو معلق قوسه في عنقه فعلا رأسه بقوسه فشجه ثم أسلم منصرفه[1].

إلا أن الإغراق في الصيد ربما كان ملهاة للرجل الخطير عن شؤونه ومدعاة لمؤاخذته، فقد هجا طرفة بن العبد عمرو بن هند بأنه قد قسم دهره بين يوم للصيد ويوم يقف للناس ببابه:

قسمتَ الدهر في زمنٍ رخيّ ... كذاك الحكمُ يقصدُ أو يجُورُ[2]
لنا يومٌ ولِلكِرْوانِ يومٌ ... تطير البائساتُ ولا نطيرُ
فأمّا يومُهن فيومُ نحسٍ ... تُطاردهن بالحدبِ الصقورُ
وأمّا يومنا فنظلُّ ركباً ... وقوفاً ما نحل ومَا نسيرُ

وهكذا كثر شعر الصيد عند الجاهليين واصفاً للمعارك التي كانت تدور بين القانصين والنعائم، وبين كلاب الصائدين وثيران الوحش وبقره وحميره، حتى غدا هذا الشعر الوصفي أحد أركان القصيدة العربية القديمة.

وكانت الكلاب التي أحسنوا تدريبها إحدى وسائل الصيد عندهم، كما كانت لهم خبرة واسعة بالصقور منذ عهد قديم حتى عد الجاحظ الصقر عربياً[3] والبازي فارسياً، كما كانوا يصيدون بالفهود أيضاً، وكليب وائل أول من صاد بالفهد[5]، وكان عدي بن حاتم الطائي أحد ملوك العرب في الجاهلية صاحب كلاب وجوارح، وكذلك كان حمزة عم الرسول صاحب صقور، أما الكلاب فلعلها تكون في مقدمة وسائل الصيد وقد وضعوا لها، من شدة اهتمامهم بها، أنساباً خاصة السلوقية منها على غرار أنساب الخيل[5]، حتى إنهم دعوها بأسماء سموها بها مثل الكلبتين كساب وسخام اللتين قتلتهما بقرة في إحدى معارك الصيد تحدث عنها لبيد في معلقته[6]. وكان فرسانهم يصيدون على صهوات الجياد مستخدمين آلاتهم القاطعة كالسيف والرمح والسهام والقسي والنبال.. !

أما عن الحيوانات المصيدة فكثيرة، وكلها تشكل عناصر من البيئة الطبيعية للبلاد

(١) سيرة ابن هشام ص٣٠٢.
(٢) خزانة الأدب «للبغدادي» ٢/ ٤١٥.
(٣) الحيوان ٦/ ٤٧٨.
(٤) الصيد والطرد عند العرب ص٧١.
(٥) المصايد والمطارد لكشاجم ص١٣١.
(٦) شرح القصائد العشر للتبريزي ص١٥٩، ط. الثالثة.

العربية الصحراوية من مثل الأرانب والظباء والوعول والثور والبقرة وحمار الوحش والماعز الجبلي والثعالب والذئاب والغزلان والنعام ومختلف الطيور كالقطا والحجل والحباري والزرازير وكل ما هو منصوص عليه في أشعارهم . . !

على أن المهم أن نعرف كيف جاء شعر الصيد في العصر الجاهلي وما هي العلاقة التي تجمع بينه وبين شعر الطرد كظاهرة فنية مستقلة من بعد . . . !

الواقع أن شعر الصيد في هذا العصر المبكر من حياة الشعر العربي، يشتمل على كثير من الوقائع والمشاهد التي نلقاها في شعر الطرد، من تصوير للمعارك التي كانت تدور بين الصائد والمصيد أكان الصائد إنساناً أم حيواناً: طائراً جارحاً أم وحشاً ضارياً، وما كان يلابس تلك المعارك من وصف للصائد والمصيد على السواء، في مختلف أحوالهما، بين الكر والفر وبين الظفر والفشل، أو حتى في حالة ما إذا كان الكلب أو الثور هو المقتول ثم ما لذلك من علاقة مطية الصياد بالحيوان المطرود، إن كانت تلك المطية جواداً أم ناقة، ليصبح مشهد الصيد نفسه وسيلة إلى تصوير هذه المطية إشادةً بقوتها أو تعظيماً لشأنها من خلال الطريدة المقصودة وذلك حين يكون الحيوان المطرود ناجياً إذا شبه به الراحلة ومقتولاً إذا طورد بالجواد وكان هو المطية، مقتولاً في مقام الرثاء أو التعزي، وفي حالة المديح تكون الكلاب هي المقتولة. يقول الجاحظ: (ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا إن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم)[1]. ومثل هذا التقليد الفني لا شك ينم عن طول عهد بالممارسة، لهذا الفن الشعري، ولموضوع الصيد، وإن وراء هذا التقليد الذي استقر في ضمائر الشعراء على هذا النحو ثقافة من الأساطير والخرافات حول موضوع الصيد بجوارحه وصياديه ومصيديه وآلاته . . مما لا يتسع المجال للإفاضة فيها الآن.

ومهما يكن من شيء فإننا نستطيع أن نضع أيدينا على نماذج من مشاهد الصيد، في هذا العصر المتقدم من تاريخ الشعر العربي تدنيه من موضوع الطرد في القرن الثاني للهجرة حين تحول هذا الشعر إلى فن مستقل، عن القصيدة العربية ـ استقلال فن الغزل والخمر وغيرهما من الفنون الشعرية الأخرى. من هذه النماذج ما جاء في معلقة امرىء القيس:

---

(١) الحيوان ٢ / ٢٠.

فعنَّ لنا سربٌ كأنّ نعاجَه عذارى دُوَارٍ[1] في المُلاَءِ المُذَيّلِ
فادبْرنَ كالجَزعِ[2] المفصّلِ بينه يجيدِ مُعَمٍّ في العشيرةِ مُخْوَلِ
فالحقنا بالهادياتِ ودُونَه جواحرُها في صَرّة لم تَزَيَّلِ[3]
فعادى عِداءً بينَ ثورٍ ونعْجَةٍ دِراكاً ولم يُنْضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ[4]
وظلّ طهاة اللحم من بين مُنْضِجٍ صفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ[5]

ويلاحظ قصر مقطع الصيد واختصاره إذا ما قيس ببقية مقاطع القصيدة. ثم قصر المدة الزمنية لمشهد الصيد وإغفال مكانه، وعدم التفصيل في الواقعة أو الحدث وإنما جاءت أبيات الصيد على قصرها وكأنها طلقة واحدة وسط حشد هائل من الأوصاف السريعة الباهرة لجواده في كره وفره وسرعة جريه، وغير ذلك من كريم صفاته ثم وصف لمشاهد الطبيعة الأخرى من برق وسحاب ومطر وما أحدثه السيل من آثار، وهكذا جاء الصيد وكأنه تبع لوصف الجواد، أو وسيلة إلى ذلك. . . ! وعلى كل فالجواد هنا وسيلة إلى الصيد وليس هو الصائد، ولهذه الصلة الحميمة التي تربط الجواد بفارسه أغرق امرؤ القيس في وصف جواده حين جعله الغرض الأساسي أو قطب الرحى في القصيدة، وما خلافه تبع له كإضافات تزيده خصوبة وثراء في المعنى وفي الصورة. . !

ومن ذلك أيضاً ما جاء في معلقة لبيد من وصف بارع لأتان وحمارها وبقرة وحشية اخطأ الرماة أن يصيبوها بنبلهم فأطلقوا في أثرها جوارح الكلاب فنشبت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بأن قتلت البقرة كلبتين هما «كساب وسخام» حيث يقول لبيد:

حتى إذا يَئِسَ الرماةُ وأرسلوا غُضْفاً دوَاجِنَ قافِلا أعصَامُها[6]
فَلحِقْنَ واعتكرتْ لها مَدْرِيّةٌ كالسَّمْهَرِيّةِ حَدُّها وتمَامُهَا[7]

---

(١) صنم يدورون حوله.

(٢) الجزع المفصل: الخرز الذي يفصل بينه وبين اللؤلؤ.

(٣) الجواحر المتخلفات من الوحش، الصرة: الجماعة، لم تزيل: لم تتفرق.

(٤) العداء، الموالاة في الجري.

(٥) الصفيف: المرقق من اللحم، القدير: الذي يطبخ في القدر.

(٦) الأعصام: قلائد من أدم تجعل في أعناق الكلاب.

(٧) اعتكرت: رجعت وعطفت ـ المدرية ـ القرون الحادة ـ السمهرية: الرماح.

لتـذودَهُـنّ وأيقـنَـتْ إنْ لم تَذُدْ أنْ قد أَحَـمّ مع الحُتُـوفِ حِمَـامُهـا[1]
فتـقـصَـدّتْ منـهـا كَسَـابِ فضُـرِّجَتْ بدمٍ وغُـودِرَ في الـمَكَـرِّ سُخَـامُهَـا[2]

والـذي نحب أن نخلص إليه، إن شعـر الصيد، قبـل ظهور الطردية سواء في الجاهلية أم الإسلام لم يصل في فنه حد وصفه بشعر الطرد الذي سنتلقى بوادره وأولياته في العصر الأموي وذلك مع اتسـاع أسباب اللهو واللذة والمتاع، ثم لتتسع من بعد مجالاته في العصر العباسي، وإذن فسنحاول أن نلتمس النقلة في العصر الإسلامي بعد أن أنعم الله على العرب بالإسلام، فجعلهم يتمرغون بالنعيم تمرغاً على حد ما يذكر معاوية بن أبيَ سفيان[3] أما عن فترة الصيد قبل ظهور الطرد فأول ما يلاحظ عليها غناها بالصور وبالحركة، مما هيأ السبيل لتحولها إلى شعر الطرد قبل الزمن الـذي حدده «بروكلمان»، لانحلال عمود الشعر في العصر العباسي ذلك أن شعر الصيد، في العصـر الجاهلي قد بلغ حداً من النضوج الفني حتى ظهر داخل القصيدة القديمة كفن مستقل بشخصه، له جميع مقومات الفن المستقل هذا إلى شدة حيويته وجمال عرضه، وإنه يصدر في الأعم والأغلب عن حدث واقعي ـ لا مجـرد فن شعري ولا كونه صورة شعرية تصدر عن صورة ذهنية، بل هناك توافق بين الخارج الموضوعي والواقع النفسي حتى إذا مستها العناصر الحضارية الجديدة في العصر الأموي نضجت الثمرة، وسرعان ما أتت أُكُلَها شعراً طردياً ذا خصائص متميزة مصطنعاً لنفسه نظاماً وهيكلية تقوم عليها الطردية، هذا مع استمرار شعر الصيد على حاله الذي عهدناه عليه في العصر الجاهلي، وإذن فقد أصبح شعر الصيد في العصر الأموي يسير في تيارين، تيار مدفـوع بقـوة الاستمـرارية منحـدر من العصـر الجاهلي ظل يصطنع أساليبه، ويؤدي نفس أغراضه، ومتخذاً نفس أدواته ووسائله إلى حد بعيد، أما الجانب المتطور منه فهو الذي تطور إلى شعر الطرد، وعلى هذا فلا حاجة بنا إلى تكرار ما قلناه عن شعر الصيد قبل الإسلام إنما غايتنا أن نصل طرديات أبي نواس بخط سير تطورها وها نحن وقد وضعنا أيدينا على بداياتها الأولية فإننا نريد أن نقف بعض الوقت عند الصلة التي شكلت جسر العبور، ما بين شعر الصيد، وبين طرديات القرن الثاني وقمتها ورأسها طرديات شاعرنا أبي نواس...

أما في العصر الإسلامي، فقد شهد شعر الصيد كما ذكرنا تحولاً كبيراً ذلك مع تحول صورة الحياة الاجتماعية الذي أدى بدوره إلى تحول كبير في الشعر العربي في صورته وفي مضمونه أو

---

(١) الحمام: الموت. واحم: حان.

(٢) تقصدت: قتلت من قولهم رماه فأقصده. (٣) تاريخ الطبري ٤/٢٤٧.

موضوعه، وكان شعر الصيد أحد الفنون الشعرية التي لحق بها هذا التطور أو التحول، ليظهر بين الفنون المستحدثة، فن الطرد منبثقاً عن شعر الصيد، أو لنقل متطوراً بشعر الصيد نفسه الذي عرفناه عند الجاهلية إلى صورة أخرى تكون أكثر ملاءمة لمقتضيات حال الجماعة المرفهة المترفه الغنية، وهكذا فإن شعر الطرد ليس نتيجة لتطور وسائل الصيد أو رقيها أو اتساع تيار الصيد أو ضيقه، أو لأنه اتخذ دوراً جديداً في الحياة المعيشية أو الاجتماعية، لا، بل لأن الحياة الاجتماعية، هي التي تطورت بهذا النوع من الشعر بعد أن أصبح الصيد إحدى الوسائل الترفيهية كالغناء والشراب ولعب النرد والشطرنج وسباق الخيل، فعلى حين ظل الصيد في جانبه النفعي كمهنة وارتزاق في صورته الأولى، رأينا الصيد في جانبه الترفيهي أو جانب اللذة كما سماه أمرؤ القيس، يتسع ويعظم شأنه ويتطور في آلته وعدده ووسائله بعدما غرق القوم في الحضارة وأصبحوا يتمرغون في نعيم الدنيا تمرغاً، كما يذكر معاوية، حتى وجدنا ابنه يزيد، وهو الخليفة أمير المؤمنين أول صياد شهير في الإسلام[1]، فقد كان (كلفا بالصيد لا يزال لاهياً به، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور والذهب، والجلال المنسوجة منه ويهب كل كلب عبداً يخدمه..)[2] كما كان مبتدعاً في الصيد يقال إنه أول من حمل الفهود على ظهور الخيل[3]، وإذن فالصيد نوعان رزق، ولذة، أو مهنة وهواية، وهكذا عرف العرب الصيد منذ جاهليتهم، وفي الإسلام، ومع ما يتكلفه صائد اللذة من نفقات باهظة، ميزوا أيضاً بين الطريقة التي يسلكها كل من الصائدين، صائد المهنة، وصائد اللذة، يقول كشاجم: (إن لذة الصيد إنما هي الطراد والمطالبة والظفر بعد الاراعه.. والفرق بين الملك المتصيد والقانص المتكسب: إن الملك هو الذي يطارد بخيله وكلابه وجوارحه ويضجر الوحش ويؤذيها ولا يطلب غراتها، والمتعيش بالقنص هو الذي يغتال بشباكه وحبائله ويخفى شخصه في القترة والناموس... ويخفى صوته ويسكت نأمته)[4].

وإذن فلا عجب أن يظهر الغناء بمكة والمدينة، كنوع من الترفيه الحضاري مع ظهور الاهتمام بالصيد كنوع من الترفيه أيضاً فالظواهر الاجتماعية المختلفة تتعاصر إذا توافرت لها الأسباب الواحدة. يقول المسعودي، والإشارة هنا إلى يزيد بن معاوية (وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضر مجلس منادمته ويطرح له متكأ.. وعلى أبي قيس قباء الحرير الأحمر والأصفر مشهر..)[5].

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتي ٢/٢٩٦.

(٢) الفخري في الأداب السلطانية ص٤٦.

(٣) مروج الذهب ٣/٧٧.

(٤) المصايد والمطارد لكشاجم ص١٥، ١٦.

(٥) مروج الذهب للمسعودي ٣/٧٧.

على أن من جاء بعد يزيد من الخلفاء الأمويين لم يكونوا أقل كلفاً منه بالصيد، فهذا هشام بن عبدالملك من شدة شغفه بالصيد يعين قيماً لضواريه يؤدبها ويطيبها ويسهر على راحتها، وكان يسمى صاحب صيد هشام بن عبدالملك وكان اسمه الغطريف بن قدامة الغساني الذي ظل ملازماً للوليد بن يزيد بعد هشام يسهر على ضواريه[1] أيضاً، بل لقد بلغ ولع الوليد باللهو والضواري وهو ولي عهد إلى أن اضطر هشاماً عمه إلى الحد من غلوائه[2] كما هو معروف، ولم يكن الصيد مقصوراً على الخلفاء وحدهم بل كان يشاركهم في لذة الصيد الامراء والوزراء والقادة والأثرياء. فهذا عبدالملك بن بشر بن مروان يقتني الفهود ويبلغ ولعه بها حداً حمله على أن يستدعي شاعرٌ فحلاً من شعراء الطرد ليصفها له. في رواية عن الأصمعي أن عبدالملك هذا قال لأبي النجم العجلي صف لي فهودي هذه فوصفها له في أرجوزة تائية معروفة تعتبر من عيون شعر الطرد وفيها يقول[3]:

إنا نزلنا خير منزلات ... بين الحُمَيْرات المُبَاركَات
في لحم وحش وحُبَارَيَاتِ ... وإن أردنا الصيد ذا اللّذاتِ[4]
جاء مُطِيعاً لمُطَاوِعَات ... عُلِّمْن أو قد كنّ عالماتِ
فهي ضوار من مضريات ... تريك آماقاً مخطّطاتِ
سُوداً على الأشداقِ سائلات ... تَلوِي بأذنابٍ موقفاتِ

وكان أبو النجم هذا يجمع بين الرجز والقصيد، وهو عند بعض الدارسين (الرائد الأول لشعر الطرد، حيث عمل على استقلاله ووضع اللبنات الأولى في أسس بنائه)[5] أما الشمردل بن شريك والمعاصر لجرير والفرزدق فيقول عنه صاحب الأغاني (صاحب قنص وصيد بالجوارح وله في الصقر والكلب أراجيز كثيرة)[6] وله أرجوزة أو طردية، كثيرة الشبه بأراجيز أبي نواس. يتصدى فيها الشاعر لنعت الصقر كما يصف وقت خروجه للصيد مبكراً مطنباً في الإشادة بدربته على الصيد والمداومة عليه مع فراهة وشدة طلب بمخالب مذرية كأنها سكاكين قصاب، وذكاء فؤاد.. وعنق مخضب..

---

(١) الصيد عند العرب ص٣٦.

(٢) الطبري ٥/٥٢٠.

(٣) الأغاني ١٠/١٦٠، والشعر والشعراء ص٥٨٨.

(٤) حباريات جمع حباري وهو طائر.

(٥) شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري لعبد الرحمن الباشا ص١٤١.

(٦) الأغاني ١٣/٣٦١.

كما يذكر إنهم استطاعوا أن يصيدوا به ثمانين طريدة ما بين فحل حباري وأرانب. . !

ونكتفي بالإشارة إلى بعض أبيات هذه الطردية لنقارن بها طرديات أبي نواس، وكيف إن أمثال هذه الطردية تعتبر المقدمة الضرورية لفن الطردية عند أبي نواس ومعاصريه بل إنهم في عامة طردياتهم لم يخرجوا عن هذا الرسم الذي رسمه شاعر العصر الإسلامي لفن الطرد:

قد اغتدى والصبحُ في حِجابه والليل لم يأو إلى مآبِه
وقد بدا أبْلَقَ من مُنْجَابه[1] بتَوّجّى[2] صادَ في شبابِه
مُعَاوِدٍ قَد ذلّ في إصْعابه قد خَرّقَ الضِّفارَ[3] من جِذَابه
وعَرف الصوت الذي يُدْعى به ولمعةَ المُلْمِع[4] في أثوابه
فقلتُ للقانِص إذ أتى بِهِ قبلَ طُلوع[5] الآلِ أو سرابه

والمهم أننا نواجه لأول مرة شعراً طردياً بكل معنى الكلمة وبكل امتيازاته فهو شعر، في معظمه من بحر الرجز[6] ثم هو مستقل بموضوعه لا يشركه عدا موضوع الصيد موضوع آخر من غير مقدمة طللية أو غزلية. أما سبب نظمه على بحر الرجز، كما يقول «نلينو» فإن الأصل فيه (كان بدوياً ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر منه إلى عيشة سكان المدن وأهل الحضر)[7] كما يلقانا في آخر هذا العصر شاعر ثالث هو أبو نخيلة اشتهر بكثرة شعره الطردي وكان الغالب عليه الرجز. وكان الوليد بن يزيد يحبه حباً شديداً ويقول ابن المعتز إنه علّم الوليد الشعر[8]. كما يذكر عنه قوله: (وله في الطرد أراجيز كثيرة مشهورة)[9]. وقد أورد له ابن المعتز جملة من طردياته، من أشهرها أرجوزة في طرد عشر نعائم[10] يستهلها بقوله: «أنعت» كما فعل من بعد أبو نواس في كثير من طردياته كما سنرى:

أنعت مهراً سبطَ القَراتِ وَرداً طِمّراً مُدمَجَ السَّراة[11]

---

(١) المنجاب: اسم مكان من أنجاب أي انكشف.
(٢) التوجي: توّج قرية بفارس تنسب إليها الصقور.
(٣) الضفار والضفر: نسج الشعر وغيره.
(٤) الألماع: الإشارة أو التلويح باليد أو الثوب.
(٥) الآل: ما يكون ضحى كالماء بين السماء والأرض.
(٦) تاريخ الآداب العربية لنلينو ص١٩٢.
(٧) المصدر السابق نفسه ص١٩٣.
(٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ص٦٣.
(٩) المصدر السابق نفسه ص٦٦.
(١٠) المصدر السابق نفسه ص٦٥.
(١١) القراة: بمعنى الظهر، الطمر: الفرس الجواد، السراة: الظهر.

أما في العصر العباسي، فقد تعاظم شأن الصيد في جانبه الترفيهي ليتعاظم معه شعر الطرد وتتضح معالمه ويصبح فناً مستقلاً له مكانه المرموق بين الفنون الشعرية الأخرى. وقد أدى إلى تعاظم شأنه وتمادى الشعراء فيه وعلى رأسهم أبو نواس، إن الصيد كظاهرة ترفيهية، شأنها شأن كل ظاهرة تحدرت إلى هذا العصر من العصر الإسلامي لتتناولها الحضارة العباسية بعواملها الجديدة المؤثرة فتحور فيها وتغير حتى تسبغ عليها رونقها وبهاءها وكذلك كان الصيد، خاصة إنه كان للفرس المعروفين بحب الصيد منذ زمن قديم[1] اليد الطولى في الحياة الاجتماعية في الدولة الجديدة بما أضفوه عليها من طوابعهم وتقاليدهم، وهكذا وجدنا السفاح أول خليفة عباسي عظيم الإقبال على الصيد، متفائلاً ومتشائماً، أما أبو جعفر المنصور فبالرغم من جده ووقاره، فقد أحس بأنه من الصعب أن يقضي على شهوة الصيد عند الناس من حوله ومن يجيء بعده من الخلفاء والامراء، لذلك، وحتى يجد لهم عذراً بين الناس، إذا فشا فيهم الصيد، وهو فاش لا محالة، عمد إلى صنيع طريف بأن ركب فرسه مشمراً عن ذيله وعلى يده باز، ومعه الربيع بن يونس، فعبر الجسر جيئة وذهوباً ثم سأل الربيع ما يقول الناس في ركوب أمير المؤمنين على هذه الحال، قال: عجبوا منها، قال أبو جعفر: إنه كان لأمير المؤمنين في ذلك مذهب وهو إنه سيأتي من ابنائنا من يحب الصيد ويتبذل فيه فأحببت أن يكون مني ما رأيت فمتى فعل مثلي من بعدي، قال الناس: قد ركب المنصور على مثل هذه الصورة[2].

أما ابنه المهدي فتذكر المصادر القديمة إنه مات في رحلة صيد[3] ومن شغفه بالصيد تروى عنه الطرائف[4] وقد شغف بالصيد كل من جاء بعد المهدي من الخلفاء[5]، فقد كان الرشيد مولعاً بالصيد حتى إن نقفور أهدى إليه اثنى عشر بازياً وأربعة أكلبة من كلاب الصيد[6] ويكفي أن نذكر أن أبا نواس افتتح إحدى مدائحه في الرشيد بذكر صفة الجارح، لما يعلمه من رأى الرشيد في الصيد[7].

أما الأمين، فقد كان (أشد انهماكاً في الصيد وأحرص عليه من كل من تقدمه. وأكثر طرد أبي

---

(١) الصيد عند العرب، ص١١.

(٢) البيزرة ص٤٣ لأبي عبدالله الحسن بن الحسين من منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٢هـ.

(٣) تاريخ الطبري ٨/١٦٩.

(٤) المصايد والمطارد لكشاجم ص١٦٦.

(٥) المصدر السابق نفسه ص٣ وما بعدها.

(٦)) الطبري ٨/٣٢١.

(٧) المصايد والمطارد ص٥.

نواس معمول في جوارح محمد وضواربه . . حتى إنه أهمل شؤون الخلافة والدولة منصرفاً إلى لهوه ولذته ومنها الصيد، حتى في أثناء حصار بغداد[1] . وكان غرامه في صيد السباع، كما كان له أخ شغف بصيد الخنازير فوقع مرة عن دابته ومات[2] . ولم يكن ولع الولاة بالصيد بأقل من ولع خلفائهم به، فهذا الفضل بن يحيى، ينقل عنه صاحب بريد خراسان وكان يتولاها الفضل إنه (تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية . .)[3] .

أجل لقد عظم شأن الصيد في العصر العباسي لأنه كان جزءاً من مسرات القوم ولذاتهم، وكان اتقانه والإقبال عليه من المؤهلات المرشحة لمنادمة الملك. يقول الجاحظ: (ولندماء الملك وبطانته خلال يساوون فيها الملك ضرورة، ليس فيها نقص على الملك، ولا ضعة في الملك. منها: اللعب بالكرة، وطلب الصيد، والرمي في الأغراض، واللعب بالشطرنج وما أشبه ذلك)[4] أي إن الصيد، أصبح في هذا العصر دليلاً على تحضر من يزاوله وبالطبع ليس هو صيد الارتزاق والعيش، فهذا الضرب من الصيد كان محتقراً من العرب، إنما هو صيد الهواية واللذة والتسلية مثل تسليهم بسباق الخيل وسباق الحمام الزاجل ولعبة الصولجان[5] ومثل لعبة الكرج التي أُغرم بها الأمين أيما[6] غرام، ومنها المحادثة بين الديوك والكباش والكلاب وكان لولع الخلفاء العباسيين وكبار القوم حينئذ بالصيد واقتناء جوارحه وضواريه آثار واضحة في المجتمع العباسي حين راح الناس يقلدون الملوك والسادة فاستشرى الصيد حتى عم جميع الطبقات، فالصيد إذن من أهم وسائل التسلية لتزجية أوقات الفراغ خارج المنزل[7]. وكان الخلفاء يخرجون في مواكب حافلة ومعهم البزاة والصقور والكلاب وهكذا كما كان الصيد ظاهرة اجتماعية. بدأت منذ العصر الجاهلي حتى عصر شاعرنا (القرن الثاني الهجري) فقد رافقتها ظاهرة أدبية شعرية، تمثلت في بدايتها بشعر الصيد الذي كان جزءاً من القصيدة القديمة حتى إذا تعقدت الحياة. وتطورت الظاهرة الاجتماعية (أعني الصيد) وجدنا شعر الصيد نفسه يتطور إلى ما سمي بشعر الطرد ثم ليتعاظم شأنه ويتسع مجاله وتكثر نماذجه. ويصبح فناً مستقلاً له خصائصه المميزة، وكان ذلك في العصر العباسي. شأن الكثير من الظواهر الشعرية الأخرى. كالغزل العفيف والغزل الصريح وكظاهرة البديع في

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٣٠٦.

(٢) الأغاني ١٠/ ١٩٠ ط. الدار.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٣٧٧.

(٤) التاج في أخلاق الملوك ص ٨٠، ٨١.

(٥) الوزراء والكتّاب ص ٢٠٧، ومروج الذهب ٣/ ٢٧٩

(٦) لعب العرب لأحمد تيمور ص ٥٥.

(٧) تاريخ الإسلام السياسي ٢/ ٤٢١-٤٢٢.

الشعر. . . وإذن فإن نظام القصيدة القديمة، لم ينتظر العصر العباسي حتى ينحل على حد ما يزعم بروكلمان[1] وإنما تم ذلك في العصر الإسلامي حين استقل الغزل بباب وحده، على أيدي شعراء الحجاز بتأثير الغناء، واستقل شعر الصيد، على صورة شعر الطرد، في وقت واحد تقريباً، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن تعاظم الغناء كنوع من الترفيه في الحياة الاجتماعية كان معاصراً لتعاظم الصيد، كنوع من الترفيه أيضاً وذلك كان زمن يزيد بن معاوية. . . أو كما سبق أن قلنا تتعاصر الظواهر المختلفة إذا توافرت لها الأسباب الواحدة. . !

ـ طرديات أبي نواس:

يشكل الطرد عند أبي نواس أحد أبواب شعره الهامة، وهو الفن التقليدي الثاني، بعد فن المديح من فنون أبي نواس التقليدية كما أنه، ربما كان يقف في مواجهة فنى المجون والخمر، اللذين يشكلان قمة تجديده، من حيث أنه يمثل قمة الاتجاه التقليدي عنده، على أن لأبي نواس نفسه رأياً طريفاً في طرده، إذ وضعه في المكان الثاني بعد الخمر والغزل، حين سئل عن شعره، عن سليمان بن أبي سهل قال: (قلت لأبي نواس ما الذي استجيد من أجناس شعرك؟ فقال: أشعاري في الخمر لم يقل مثلها، وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعري، إن لم يزاحم غزلي ما قلته في الطرد)[2].

وفي «الموشح» عن أبي علي البصير في مناظرة له مع أحمد بن أبي طاهر أنه قال: (الشعر بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يحسنهما، وأجود شعره في الخمر والطرد. .)[3] أي إنه فضل طرد أبي نواس على مديحه وهجائه، كما قرنه بفنه الأول وهو الخمر. .؟ ولقد جاء اتقان أبي نواس فن الطرد، حتى أصبح شاعره الأول، بلا منازع عند كتّابنا المحدثين، لمعرفته بالحيوان الصائد والمصيد، وهي خبرة اكتسبها من عيشه في الصحراء عاماً كريتا كما ذكرنا في تاريخ حياته، ولذلك رأينا الجاحظ ينوه بهذه المعرفة باعتبارها الأساس الذي عليه قام تبريزه في فن الطرد يقول الجاحظ:

(وأنا كتبت لك رجزه في هذا الباب لأنه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاه في أراجيزه)[4] ثم إن اتصاله بالأمين، الذي شغف بالصيد شغفاً ألهاه عن تدبير شئون خلافته لا شك إنه يسّر له

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/٩.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/٥٤.

(٣) الموشح للمرزباني ص٤٣٤.

(٤) الحيوان ٢/٢٧.

تعميق خبراته بالصيد وشؤونه وحيوانه حتى قيل إن أكثر طرده معمول في جوارح الأمين وضواريه[1]. ولكي نقف على مقدار أبي نواس في فن الطرد يكفي أن نقارن بينه وبين شعراء الطرد المعاصرين له أو القريبي العهد منه، كأبي النجم العجلي والشمردل بن شريك اليربوعي وأبي نخيلة، من السابقين عليه، وكعبد الصمد بن المعذل والرقاشي وأحمد بن زياد بن أبي كريمة من المعاصرين له، حتى يتضح لنا البون الشاسع الذي يفصل شاعرنا عن هؤلاء جميعاً؛ كثرة في الطرديات وتنويعاً في الموضوع وإتقاناً لفن الطرد نفسه. من أجل هذا كان طرد أبي نواس أول قمة تسلق عليها فن الطرد حتى بدا البناء شامخاً، فلأبي نواس، إذن (فضل التجويد والارتقاء بهذا الفن حتى أخذ من جاء بعده يقلدونه وينسجون على منواله)[2]. هذا، وعدد طرديات أبي نواس مختلف فيه كثيراً، ففي ديوانه، برواية الصولي[3]، بلغ عددها سبعاً وأربعين طردية، نص على سبع منها بأنها منحولة ـ كما نسب الجاحظ الطردية التي تبدأ بهذا البيت:

قد اغتدى والليل أحوى السُدِّ والصبحُ في الظّلماءِ ذو تَقَدِّى[4]

إلى الفضل الرقاشي[5]، في حين ينقل الأصفهاني راوي ديوان أبي نواس (إن أبا نواس لم يقل من الأراجيز في الطرد إلّا تسعاً وعشرين، وما زاد على ذلك فهو منحول)[6]، وفي خبر آخر مرفوع إلى إبراهيم بن محبوب، إن أبا نواس أملى دفتراً بخطه وتوقيعه (فيه نيف وسبعون أرجوزة في الطرد)[7] وخبر ثالث عن (رواة أبي نواس محمد بن حرب بن خلف وسليمان بن سخطة واليؤيؤ والجماز البصري وابن الداية البغدادي نخاس الرقيق وعلي بن أبي خلصة أن أبا نواس لم يقل في الطرد إلا تسعاً وعشرين أرجوزة وأربع قصائد فما زاد على هذا فهو منحول)[7]. ثم يذيل الأصبهاني هذا الكلام بقوله: (فأما الأراجيز التي صحت له فهي..)[7]. وقد بلغت جملتها ستاً وعشرين طردية، وأما القصائد فأربع ثم أرجوزتان قال عنهما الأصبهاني: (ليستا من الطرد وإنما لبّس فيهما إذ أدخلهما في باب الطرد يصف في إحداهما... وفي ثانية درهماً[8].

---

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص٥.

(٢) الصيد والطرد في الشعر العربي ص٢٦٢.

(٣) ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق بهجت عبدالغفور الحديثي ـ بغداد سنة ١٩٨٠.

(٤) السد/ ما سد الأبصار بظلمته ـ الأحوى ـ الأسود. ذو تقدي: سير شديد، أي: يريد أن الصبح ينبثق في الليل ويسير فيه.

(٥) الحيوان ٦/٤٧٢.

(٦) الديوان ٢/١٧٧ بتحقيق ايفالد فاغنر.

(٧) ديوان أبي نواس ٢/١٧٦، ١٧٧ بتحقيق فاغنر.

(٨) المصدر السابق نفسه ٢/١٧٩.

أما في طبعة الغزالي والتي اعتمد فيها على روايتي الصولي والأصبهاني فقد بلغ عدد الطرديات اثنتين وخمسين طرديـة[1] ولكن بعض الدارسين يذكر إن عدد طرديات أبي نواس تربو على خمس وخمسين طردية. على أن أول ما نسجل من ملاحظات على هذه الطرديات خروج بعضها على بحر الرجز. وهي الطرديات الآتية:

الطردية ذات المطلع:

ربّـمـا أغـدو معـي كلْبِـي طَالـبـاً للصـيدِ في صَحْـبِـي

من البحر المديد [2]

والطردية:

قد اغـتـدى والـصبـح مشـهـورُ قد طلعـت منـه الـتـبـاشـيرُ

من البحر السريع [3].

والطردية:

قد كاد هذا الـفـخُّ أن يعـقِـرَا وانـحـرف الـعـصفـورُ أن ينقُـرا

من البحر السريع [4].

والطردية:

قد أسـبـق الـقـاريةَ الـجُـونـا من قبـل تثـويبِ الـمُـنـادِينَـا

من البحر السريع [5].

كما أدخلت تحت باب الطرد مقطوعة من الرجز قيل إنها في وصف الصقر وقيل إنها شيء آخر:

قد أغـتـدى قبـل مَذَادِ الخـامسِ بِضَـرِمٍ ينـفُضُ كف الـلامس[6]

كما تلقانا من بين طردياته الأرجوزة التالية:

---

(١) ديوان أبي نواس ص٦٢٤ وما بعدها ـ ط. الغزالي.

(٢) ديوان أبي نواس ص٢٥٠ برواية الصولي ط. بغداد، و ص ٦٣٢ ط. الغزالي. و ٢/٢٤٦ بتحقيق ايفالد فاجنر.

(٣) ديوان أبي نواس ص٢٩٦ ط. بغداد. ص٦٣٥ ط. الغزالي. و ٢/٢٤٥ بتحقيق فاجنر.

(٤) ديوان أبي نواس ص٣٠١ ط. بغداد، و ص٦٦١ ط. الغزالي و ص ٣/٢٤٩ تحقيق فاجنر.

(٥) ديوان أبي نواس ص٣٥١ ط. بغداد، ص٦٧٠ ط. الغزالي و ٢/٢٤١ ط. فاجنر.

(٦) المصدر السابق نفسه ص٣٢١ ط. بغداد، المصدر السابق ص٦٦١ ط. الغزالي، و٢/٢٥٢ ط. فاجنر.

obeikandl.com

ألـم أبـك رسـمـاً مُقـفـراً ودوراَ تسـمـع للصَّـعْـلِ به زمـيرا[1]

وفي طبعة بغداد، برواية الصولي جاء قوله:

(قال أبو بكر: ليست هذه القصيدة له وقال يصف الدرهم وهو يرى أنه صقر وهذا مما ذكرنا إنه عماه ويذهب على الناس ولا يعرفونه. . .)[2] وفي طبعة فاغنر أيضاً: (وقال يصف الدرهم ورواه الناس في صفة الصقر وهي مما عماه ورواها عنه إسحق بن خُليد أبو وائل رفيقُ أبي نواس[3].

كما أن هناك طرديتين، ليستا من الطرد بمعناه المألوف عندنا في شيء، وقد خالف فيهما أبو نواس معنى الطرد ولعلهما مقحمتان على ديوان الطرديات. وذلك حين وصف الديك الهندي في مناقرته لأقرانه من الديكة. وهما الطرديتان الأولى وتبدأ بهذا البيت[4]:

أنـعـت ديكـاً من ديوك الـهـنـدِ أحسنَ من طاووسِ قصر المهـدِيّ

والثانية تبدأ بهذا البيت[5]:

أنـعـتُ ديكـاً من ديوك الـهـنـدِ كريـمِ عـمٍّ وكـريمِ جـدِّ

والمناظرة بين الديوك وهراش الكلاب من اللهو الذي كان شائعاً في العصر العباسي. على أن الأغلب أن تكونا طردية واحدة لاتفاقهما في الموضوع والروى والمطلع أيضاً ولا مكان إدماجهما معاً في طردية واحدة دون خلل بيّن. لهذا كله رجح عندي كونهما طردية واحدة، ثم هما تدوران حول وصف الديك الهندي ومناقرته لأقرانه من الديكة، فأين هو الطرد بالمعنى الذي عرفناه منذ العصر الجاهلي حتى عصر أبي نواس. ونمضي مع طرديات أبي نواس بعد هذه المقدمات الضرورية لنرى إنها قد انقسمت حسب موضوعها الرئيسي الذي تدور من حوله أحداث الطردية إلى جملة من الأبواب أو الفصول، فقد يكون محور الأحداث حيواناً ضارياً، أو طيراً جارحاً، أو حيواناً عادياً كالجواد. وربما كان إحدى وسائل الصيد المادية كالفخ والبندق. على أني أرى أن للطردية حدين أو عنصرين أو لنقل ركنين أساسيين لا بد من توافرهما حتى يتم معنى الطرد هما الطارد والمطرود، أو الطارد والطريدة أو الصائد والمصيد. وقد يكون هذا هو الذي أوحى لمن وضع طرديتي الديك الهندي ضمن هذه الطرديات لكون أحد الديكين يكون طارداً والأخر مطروداً أو

---

(١) ديوان أبي نواس ص٢٩٨ ط. بغداد، و٢/٢٥٣ ط. فاجنر.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٢٩٨ ط. بغداد. (٣) المصدر السابق ٢/٢٥٣. ط. فاغنر.

(٤) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص٦٥٩. (٥) الديوان ص٦٤٥ ط. الغزالي.

طريدة. أو لنقل إن هذه المناظرة بين الديكين لا بد أن تنتهي على شاكلة الصراع بين الصائد والمصيد، أو بين الطارد والطريد، وعلى كل، فإن من أول شروط الطردية أن يكون طارد ومطرود أو طارد وطريدة، والطارد هو العنصر الأول: والركن الأول من ركني الطردية، بغض النظر عمّا يكون: حيواناً ضارياً أو طائراً جارحاً أو حيواناً عادياً كالجواد أو إحدى أدوات الصيد الأخرى. . . !

هذا وباستقصاء جميع طرديات أبي نواس يتبين أن الركن الأول من الطردية اشتمل على العناصر التالية:

من الضواري: الكلاب والفهود.

ومن الجوارح: البزاة والصقور واليآيىء والشواهين والديك الهندي.

ومن الحيوانات غير الضواري: الحصان.

ومن الأدوات المادية الفخ وقوس البندق.

ومن الملاحظ أن الطردية كانت تولي هذا العنصر اهتمامها أكثر من الاهتمام بالطريدة. كأنما الطردية في الأصل انعقدت على وسيلة الصيد أو الصائد من حيوان ضار أو طير جارح أو أداة مادية ليأتي الحديث عن العنصر الثاني وهو الطريدة أو الحيوان المصيد في المقام الثاني أو في معرض الحديث عن العنصر الأول، حتى وجدنا صاحب هذه الحيوانات من جارحة وضارية يُنسب إليها. فصاحب الفهود أو مدربها يسمى فهاداً. ومثله مدرب الكلاب يسمى كلّاباً، وكذلك صاحب الصقور يدعى صقاراً[1]. وبناء على ذلك قسمت الطرديات إلى أقسام تبعاً للحيوان الصائد أو وسيلة الصيد. وهذا معقول. فبالوسيلة، مهما يكن نوعها تتحقق الغاية من عملية الصيد أو الطرد، ثم إن هذه الوسيلة هي المحرك للحدث أو العملية، وعليها يقع عبء عملية الصيد أو الطرد من أوله إلى آخره، كما يتوقف على سعيه، النتيجة بالظفر أو الفشل.

وما دام الأمر كذلك، فلعل الأفضل أن نبدأ، في محاولة للوقوف على حقيقة الطردية النواسية، أن نتعرف أولاً على أنواع الطرائد التي تضمنتها طرديات الشاعر، تمهيداً لتبين خصائص ما امتاز به شعر الطرد عند شاعرنا. هذا ولا يفوتنا، أن نذكر، إن رحلات أبي نواس للصيد كانت للهو والمتعة والتسلية لا للرزق والمعيشة. فلا بد أن تكون طرائد هذه الرحلات من النوع الذي يتناسب وهذه الرحلات الملوكية حيث كان يرحل أبو نواس للصيد في رفقة خليفة أو أمير أو وزير أو قائد ممن تستهويهم أنواع معينة من الطرائد، ولذا اختفى من طردياته حمار الوحش والذئاب والضباع

---

(١) الصيد والطرد عند العرب ص٥٢ بتحقيق ممدوح حقي.

لا لأن هذا الحيوان لم يكن في بيئة العباسيين[1]، بل لأن مثل هذا الحيوان كان يصيده البدوي في صحرائه طعاماً لعياله. ولم تكن رحلات من سلف ذكرهم من السادة للارتزاق والكسب وإنما كانت للهو والتسلية والفروسية، تماماً كما كانوا يجرون خيولهم للسباق، وكم كان يغيظ الواحد منهم إذا فشلت جوارحه أو ضواريه في الصيد، مثلما كان يستبد به الحزن أو الغيظ إذا فشلت جياده في السبق[2].

هذا، وبعد استقصاء شامل لطرديات أبي نواس نستطيع أن نضع أيدينا على الطرائد التي تضمنتها هذه الطرديات، إلّا أنه قد يكون من الصعب أن نحدد لكل طارد طريدة بعينها يختص بها كما حاول بعض الدارسين أن يفعلوا، غير أن الذي لا شك فيه أن الجوارح من الطير أولى بطرائد الطير من الضواري. ولكن ربما اشترك حيوان ضار مع طير جارح في عملية صيد واحدة، كأن يشترك صقر مع كلب في صيد غزال[3]. إلّا أن الذي يحدد الطريدة وطاردها هي الطردية نفسها، لذلك فقد آثرت أن أسمي طرائد طرديات أبي نواس جملة واحدة لنحدد عند درس أو شرح الطردية طاردها وطريدتها معاً كما ذكرت. هذا وقد تضمنت طرديات أبي نواس من الطرائد البرية: الأرانب، والثور الوحشي، والظباء والثعالب والنعام برئالها وظلمانها.

ومن الطرائد الجوية أو الطيور:

الحباري، والكراكي، والبغثان، وأسراب الطيور دون تسميتها والمكاء، والقطا، والعصفور.

وربما كان هذا العدد قليلاً، إذا ما قيس إلى عدد طرديات أبي نواس التي أربت على الخمسين كما يقول بعض الدارسين، ولكن لذلك أسباب من جملتها أن الشعراء في ذلك العصر صرفوا همهم كما ذكرت إلى وصف الجوارح والضواري أكثر من اهتمامهم بالطرائد، التي كان المفروض أن تكون أعدادها أضعاف عدد الضواري والجوارح لإمكانية الصيد بالوسيلة الواحدة، والجارح الواحد جملة من أصناف الطرائد البرية والجوية.

ـ مذهب أبي نواس في طردياته:

بعد هذا أحسب أن قد حان الوقت حتى نتعرف على الأسلوب الذي سلكه الشاعر في بناء طرديته وهل كانت له لغة مختارة في طردياته، ومعاني خاصة به..؟

كل هذه الأسئلة قد أجبنا عنها، في كوننا وضعنا هذا الفن من شعر أبي نواس تحت دائرة

---

(١) الصيد والطرد في الشعر العربي ص١١١.

(٢) الوزراء والكتّاب ص٢٠٧.

(٣) الصيد والطرد عند العرب ص٥٢.

التقليد، وإذن فأبو نواس في طرده، مقلد، ولكن ذلك لا يعني إنه لم تكن له شخصيته المتميزة في تناوله لهذا الموضوع الصعب البديع. الواقع إن هذه الطرديات تكمل صورة الشاعر الجديد القديم في شخص أبي نواس، ولعل للعقاد بعض العذر فيما ذهب إليه من أن أبا نواس كان يقصد بمبالغته في التقليد بهذه الطرديات إثبات قدرته اللغوية وإن ذلك كان منه من قبيل العرض الفني[1] وإنه ليس أقل من بشار في هذا الباب الذي كان يتحدى رجاز عصره، وهكذا اصطنع أبو نواس لطردياته بحر الرجز إلّا في القليل منها، ألمحنا إليها فيما مضى من الصفحات. كما حرص على النص في معظم طردياته خاصة الكلبية منها على لفظ «الغدو» بمعنى التبكير، كدلالة على أن أحسن أوقات الصيد يكون في الصباح الباكر وهكذا تكرر لفظ «الغدو» طبقاً لما ورد في ديوانه برواية الأصبهاني، خمس عشرة مرة، وهو عدد كبير، يشعر القارىء أن «الغدو» أو التبكير من لوازم الصيد، ثم نصه على لازمة أخرى وهي لفظ «أنعت» وردت ثلاث مرات، هكذا: أنعت كلباً.. ! وإلى جانب بحر الرجز اختار القافية المزدوجة الروى كما اختار أصعب القوافي وأندرها وروداً في قصائد الشعراء من مثل: الطاء والظاء.. كما كان الصائد (الحيوان الضاري) أو (الطير الجارح) هو الغالب على الطردية من دون المصيد، لأسباب ذكرتها آنفاً، حتى كأن الطردية، لم يكتبها الشاعر إلّا لإظهار جمال أو قوة أو نفع، هذا الجارح أو ذاك الضاري لتكون الطريدة على مسرح الطرد، حيث تكون معركة الصيد في الجو أو على الأرض، أحد العوامل المساعدة، على إبراز مزايا هذا الصقر أو ذاك البازي أو ذاك الكلب أو الفهد.. !

وعلى أية حال فقد كان للكلب القسط الأكبر من طرديات أبي نواس التي تعد من أبرز الموضوعات التي استأثرت بعبقريته في الوصف. ولذلك كان طرده وأبرزه في الكلب، قرين شعره في الخمر، إذ أربى ما قاله في الكلب من طرد على جميع ما قاله في الجوارح والضواري وأدوات الصيد الأخرى. والقارىء لطردياته في الكلب يحس أن علاقة حميمة كانت تربط بين الشاعر وكلبه. وبغض النظر عن المشاركة الوجدانية التي تجمع أطراف الصيد من إنسان وغيره، فإن طردياته الكلبية تمتاز بما هو أكثر من هذا، تمتاز بالمعرفة الدقيقة بأحوال الكلب في سرائه وضرائه، وهذا لا يستغرب من أبي نواس الذي كان يعرف من الكلاب (ما لا تعرفه الأعراب)، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان منه هذا الإلحاح على الكلب، ولذلك تضمنت طردياته الصفات المستحبة في كلب الصيد. وصفاته الجمالية، والمنافع التي يفيدها الكلّاب من وراء صيده، ففي مقطوعة تقع في ستة أبيات، يظهر لنا مدى اعتزاز أبي نواس بهذا الكلب اعتزاز الفارس العربي بجواده الذي

---

(١) أبو نواس للعقاد، ص١٥٨.

به كان يصبح الأعداء، وعليه كان اعتماده في النجاة إن داهمه خطر مفاجىء، على أن في هذه الطردية ميزة قد لا نجدها في الجواد وهي إن الكلب صياد ماهر حتى غدا ولي نعمة أصحابه، به يسعدون حين هم بفضل سعيه يرزقون، ولذلك فهم يكبرونه حتى أصبح صاحبه كأنه عبده، وهكذا كان له المكان الأدنى عنده فإن تعرى احتضنه تحت ثيابه . . ! ثم إن هذا الكلب أغر، أي في جبهته بياض، وبمثل هذا كان العرب يستبشرون ويتبركون، حتى إنهم ليدعون المبارك بالفأل «مبارك الناصية» وكذلك هو محجل الزند، ونحن نعرف أن العادة أن يُطلق لفظ المحجل على الجواد، هذا إلى استواء قد يروع القلب والعين منظره، ثم إن فيه من الصفات الكلبية الطردية ما يليق بمثله من الكلاب الأصيلة؛ من اتساع شدقيه وطول خده، فكم تحاول الظباء عبثاً الإفلات من قبضته فيا له كلباً قل نظيره[1] . . !

أنعتُ كلباً أهلُه من كَدِّهِ ... قد سَعِدتْ جدودُهم بجَدِّهِ
وكلُّ خيرٍ عندهم من عندِهِ ... يظل مولاه له كعبدِهِ
يبيت أدنى صاحب من مهدِهِ ... وإن عرَى جلّلهُ ببُرْدِهِ
ذا غُرّة، محجّلا بزَنْدِهِ ... تلذُ منه العينُ حسنَ قَدِّهِ
تأخيرَ شدقيهِ وطُولَ خده ... تلقى الظباءُ عنَتا من طَرْدِهِ[2]
يشربُ كأسَ شَدِّها بشَدِّهِ ... يصيدها عشرين في مُرْقَدِّهِ[3]

يا لك من كلب نسيجَ وحدِهِ!

هناك ثلاثة جوانب ظل أبو نواس يلح عليها في طردياته الكلبية، هي الجانب الجمالي والجانب النفعي وجانب القوة بحيث يتشكل من مجموعها الوجود الشعري لهذا الكلب الجميل القوي النافع، وقد تجور ناحية على أخرى. ولكن أبا نواس استطاع أن يستغرق في هذه الجوانب جميعَ الصفات المستحبة والنافعة والباعثة على الإكبار في كلابه . . !

وفي إحدى طردياته يصف أبو نواس مشهداً طردياً عجيباً، والأعجب أنه يبدأ الطردية بغدو الصيد، وهو الثعلب هنا، بدلاً من الكلب كما عودنا في كثير من طردياته، فهو بعد أن يشير إلى غدو الثعلب صباحاً خارجاً من جحره يلتمس الكسب لصغاره، يمضي في وصف هذا الثعلب،

---

(١) الديوان ص٦٢٤ ط. الغزالي.

(٢) عنتا تحاول الظباء الفرار منه.

(٣) المرقد كمعتز: الطفرة نشاطاً، أي يلحقها فيستغرق عدوها في شده وعدوه.

فهو جذلان قد استخفه المرح حتى كان يدور في موضعه الكائن فيه، إذا بكلب مهتاج جائع يختال في زينته، ويشير إليه أبو نواس بلفظ «ضرم» أي ملتهب مستطرداً إلى وصف هذا الكلب مذ كان غضاً طرياً إلى أن استوى في تمام عدته من ضمور في الجسم، وحدة في الأسنان، وتلهب في العين، حتى أحسن تدريبه وتأديبه فأصبح قادراً على الصيد بعد الاختبار(١):

لما غدا الثعلب من وِجَارِهِ ... يلتمس الكَسْبَ على صِغارِهِ(٢)
جذلانَ قد هُيِّجَ من دُوّاره ... عارضْتُه في سَنَنِ امتيارِهِ(٣)
بِضَرِمٍ يمرحُ في شِوارِهِ ... في الحَلَقِ الصُّفرِ وفي أَسْيارِهِ(٤)
مُضطرمِ القُصْرى من اضطمارِهِ ... قد نحتَ التلويحُ من أقطارِهِ(٥)
من بعد ما كان إلى أَصْبارِهِ ... غضاً كستْهُ الخورُ من عِشارِهِ(٦)
أيام لا يُحبَسُ من عِثارِهِ ... وهو طَلِيٌّ لم يَدْنُ من شِفارِهِ(٧)

ثم يجيء مشهد الصيد البديع، الذي جمع فيه أبو نواس من قوة التركيز وشدة وضوح الصورة بحيث جعل من هذا الكلب الهائج، وهو قاصد صيده، طلقاً منقضاً، مثل انقضاض الكوكب اللماح أو شارة النار في يد رجل يديرها، حتى بلغ من شدة عدوه أن أظفاره تكاد تسبق أذنيه فتخدشها خدشاً، حتى وافى صيده ولحق به وداخله في عفاره، ثم أهوى عليه منتزعاً مفاصله ممزقاً صدره، فاصلاً فقاره.. وهكذا فما أفاد الثعلب بكوره في الغداة إلى معاشه..!

فانصاع كالكوكب في انحدارِهِ ... لَفْتَ المُشيرِ مَوْهِناً بنارِهِ(٨)
حتى إذا أحصفَ في إحضارِهِ ... خرّق أذنيه شبا أظفارِهِ(٩)

(١) الديوان ٦٢٩، ط. الغزالي.

(٢) الوجار: الجحر.

(٣) سنن امتياره: طريقة طلبه الطعام.

(٤) ضرم: جائع ملتهب، الشوار: الزينة والمتاع، والمراد القلائد.

(٥) مضطرم: ملتهب، القصري: أسفل الأضلاع، أقطاره: جوانبه.

(٦) الأصبار: جمع صبر وهو ناحية الشيء. غض: طري ممتلىء لحماً وشحماً، الخور: جمع خواره وهي الناقة الغزيرة، العشار: جمع عشراء وهي الناقة التي لها عشرة أشهر من حملها.

(٧) شفاره: شفر الكلب إذا استوفى من سنه سنة.

(٨) انصاع: أي انشق في ناحية، انحداره: انحطاطه وانقضاضه.

(٩) أحصف: بالغ في العدو.

حتى إذا ما انشامَ في غُبارهِ عافره أخرقَ في عِفَارهِ[1]
فتلتلَ المفصلَ من فِقارهِ وقدّ عنهُ جانبي صِدَارهِ[2]

لا خير في الثعلب في ابتكاره

بمثل هذا التركيز بالقليل من الألفاظ في كثير من المعاني وبمثل هذا التجميع للصور على مسرح الأحداث كان أبو نواس يبتدىء طرديته وينهيها، ولو أن هيئة فنية عربية من مؤلفين ومخرجين وسيناريين، تضافروا على مثل هذه الطرديات العجيبة لا تحفونا منها بأعمال فنية بديعة تربط الماضي بالحاضر بل تجعل الحاضر يتمثل الماضي ويمثله في حياتنا المعاصرة ليؤهله لمعايشة الحاضر بكل ما في ذلك الماضي من أصالة وعظمة.

أبو نواس حريص على التدقيق في الصورة للطارد والطريد وللحدث بنهايته المعروفة..!

إن جمالية الكلب، إذا كانت قد أخصبت خيال شاعرنا فقد استأثرت بموهبته التصويرية كما لم تستأثر بها جمالية جارح أو ضار غيره.. فصورة الكلب عند أبي نواس دائماً منتقاة مختارة توحي بالروعة والجمال في آن واحد.. إلّا أن أبا نواس يجعل القوة التي تسفك الدماء وتمزق المفاصل وتجندل الطرائد مثار إطراء وإعجاب وإكبار، لا من حيث هي قوة غلابة، بل لجمال المشهد ولطرافة الحدث.

ولننظر إلى هذا الكلب وقد رأى تيس الظباء بقرنيه الطويلين، على ما لهذا التيس من قوة ونشاط وشدة في الجري، إذا به يشتد في إثره وكأنه البرق في سرعته فيجاريه عدواً حتى أدركه مذرياً من حواليه حب الحصى وكأنها فقاقيع الزيت عند قليه[3]:

لما رأى العَلْهبَ في أقْواطهِ[4]
سابحَه وَقَرَّ في التباطهِ[5]
كالبرقِ يُذري المرو بالتقَاطِهِ[6]

---

(١) انشام: دخل فيه، عافره: غالبه مارسه.

(٢) تلتل: شد ونزع، قد: شق، صداره: ما على صدره من جلده.

(٣) ديوان أبي نواس ص٦٢٥ تحقيق الغزالي.

(٤) العلهب: المسن من الظباء، الأقواط: جمع قوط وهي القطيع من الغنم.

(٥) سابحه: أي عاداه، والألتباط: العدو بأشد القوة.

(٦) يذري: يثير، المرو: الحجارة الصغيرة.

مثـلَ قَلِيٍّ طارَ في أنـفـاطِـهِ[1]

أما مرثيه أبي نواس في كلبه فهي قمة طردياته الكلبية وأن تكن القصيدة ليس فيها من معنى الطرد إلاّ أنها قيلت في أحد ضواريه ألا وهو الكلب. . ! وهي بكائية من نوع طريف، ولعل أبا نواس تجاوز حد الاعتدال في هذه المرثية حين جعل من هذا الكلب، عدته وزاده في هذه الدنيا، وهي مبالغة غير معقولة. فأبو نواس لم يكن يرتزق بالصيد أو القنص وإنما كان يتسلى ويلهو ويلعب بالكلاب. أجل كان يلعب بالكلاب إذ فاته آن يكون فارساً. . . ثم إن معاشه كان من نوال الخلفاء والحكام وذوي السلطان لا من الكلاب، أو الصقور أو البزاة، كما كان يفعل الخليل بن أحمد الفراهيدي، فكيف يزعم أنه «أغناه عن القصاب» وعن «شراء الجلب الجلاب». هذا كلام يقوله صياد محترف مرتزق اتخذ الصيد معاشاً ورزقاً، أما من كان مثل أبي نواس يعيش في ظلال الخلفاء، فلا يجوز له مثل هذا الكلام وإذن فهذه هي الطردية الأولى والأخيرة التي فيها يصرع الصائدَ، غيرُ مصيد، وإنما عدو لدود، أفعى من الرقش، كالحة الأنياب، على أن أبا نواس جعل مرثيته «ولا أقول طرديته» في فصلين، عدد في الفصل الأول منها مآثر كلبه «حلاب» واصفاً إياه بسيد الكلاب وإنه أغناه عن القصاب، لعله أراد أن يؤكد لنا اهتمامه بالكلاب من دون الجوارح والضواري الأخرى، كما يذكر لنا الجاحظ لعبه بالكلاب زماناً حتى كان يعرف عنها أكثر مما يعرف الأعرابي. . ! وهو يذكر هذا الكلب منوهاً بصيده للظباء والذئاب، وهذا غريب، فلم ترد الذئاب كما أسلفت بين طرائد شاعرنا فلربما كانت القافية هي التي جاءت بلفظة الذئاب في هذه المرثية، كما كان في هذا الكلب أيضاً الغنى عن الصقر، مما يؤكد أن أبا نواس لم يكن صاحب صقور أيضاً، فلعله أغرم بالبزاة الفارسية كما يقول الجاحظ من دون الصقور العربية أو لعله يشير إلى الصيد المشترك بين الكلب والصقر فأغناه «حلاب» عن ذلك فكان اعتماده على الكلب وحده.

وحين يريد أبو نواس أن ينوه بفضل كلابه، يجد المجال أمامه واسعاً وكيف لا. . . وقد أغناه هذا الكلب عن القصاب وعن الخدم يجلبون له الطعام، وإذن فهذا الكلب صياد ماهر وخادم أمين، ثم هو أغناه عن الضواري والجوارح الأخرى، وذلك لما جرب وخبر من أفاعيله في الظباء والذئاب والغزلان، إذا انقض عليها كان كالبرق المتصوب بين النجم والسحاب، وهي صورة تتكرر عند أبي نواس كثيراً في وصف سرعة كلابه[2]:

---

(١) القلي: ما قلي على المقلى، الأنفاط: الفقاقيع المتناثرة في الهواء.

(٢) ديوان أبي نواس ص٦٤٣ بتحقيق الغزالي.

يا بؤس كلبي سَيد الكلاب | قد كان أغناني عن العُقاب
وكانَ قد أجزى عن القصّاب | وعن شراء الجَلَب الجَلّاب[1]
يا عينُ جودي لي على خَلّاب | من للظباء العُفر والذئاب[2]
وكل صقرٍ طالعٍ وثّاب | يختطف القُطّانَ في الروابي
كالبرقِ بين النجمِ والسحاب | كم من غزالٍ لاحقِ الأقراب[3]
ذي جيئةٍ، صَعْبٍ وذي ذَهابِ | أشْبعَني منهُ من الكَبابِ

وفي الفصل الثاني يحكي أبو نواس قصة مصرع الكلب وكيف أن حية لدغته في رحلة صيد فخر صريعاً، وهو يصف الحية بأنها كالحة الأنياب رقشاء مخططة . . . وأبو نواس يختم هذا الفصل بالتهديد متوعداً هذه الحية الخبيثة . . بالويل والثبور:

خرجت والدنيا إلى تَبابِ | به وكان عُدّتي ونَابي[4]
أصْفَرَ قد ضُرّجَ بالملاَبِ | كأنما يُدْهَنُ بالزِرْيابِ
فبينما نحن به في الغابِ | إذ برزت كالحةُ الأنيابِ[5]
رقشاءُ جرداءُ من الثّيابِ | كأنما تبصرُ من نقابِ[6]
فَعلَقَتْ عرقُوبَه بنابِ | لم ترعَ لي حَقاً ولم تُحَابِ
فَخرّ وانصاعَتْ بلا ارتيابِ | كأنما تنفخُ من جرابِ
لا أُبْتُ ان أُبْتِ بلا عقابِ | حتّى تذُوقي أوجعَ العذابِ[7]

وسيأتي الفهد بعد، من بين الضواري التي احتوت عليها طرديات أبي نواس، وإن يكن نصيبه من هذه الطرديات أقل نصيب إذ لم يقل فيه أبو نواس إلا طردية واحدة تقع في عشرة أبيات.

هذا والفهد من السباع، وهو من جوارح البهائم، وفي طبعه مشابهة بالكلب، كما أن من خلقه الغضب ويضرب به المثل في كثرة النوم، فيقال أنوم من فهد، وأثقل رأساً من فهد[8].

---

(١) الجلب: الخدم.
(٢) حلاب: لعله اسم الكلب.
(٣) لاحق القرب: بمعنى ضامر.
(٤) تباب: هلاك.
(٥) كالحة الأنياب: الحية تكشر عن نابها.
(٦) رقشاء: مخططة.
(٧) لا أبت: لا رجعت، . يدعو على نفسه قائلاً لا رجعت سالماً إن رجعت أيتها الحية بلا عقاب أليم.
(٨) الصيد والطرد عند العرب ص٧٠، ٧١.

ومن شأنه (إذا وثب على طريدته، لا يتنفس حتى ينالها فيحمي لذلك وتمتلىء رئته من الهواء الذي حبسه وسبيله أن يراح ريثما يخرج ذلك النفس وتبرد تلك الغلة)[1].

هذا وللفهد ضروب من الصيد، منها المكابرة، وهي لفظة يستعملها الفهادون ويريدون بها المواجهة والدسيس والمذانبة[2] أما الدسيس فهو أن تحط الفهد عن دابته بعد أن يتشوف الظباء ويحسبها على بعد وتسير أنت دابتك كأنك لا تنحو نحوها وفهدك يدب إليها. . !

والمذانبة، أن تمتد الظباء وتأتي في إثرها وأذنابها فتلقى الفهد عليها[3] .

ويقول الجاحظ (وقد يصاد بضروب منها الصوت الحسن فإنه يصغى إليه اصغاء حسناً وإذا اصطادوا المسن كان أنفع لأهله في الصيد من الجرو الذي يربونه. .) وأيضاً: (وهو أنفع من صيد كل صائد وأحسن في العين وله فيه تدبير عجيب)[4].

هذا ولا تتميز الأرجوزة التي قالها أبو نواس في الفهد بشيء ذي بال عن طردياته في الكلب، بل إنها تكاد تكون تكراراً لما سبق قوله في طردياته الكلبية. والظاهر أن أبا نواس لم يكن فهّاداً، أو صاحب فهود فلم يعرف عنه مثل هذا الشغف، وإنما كان صاحب كلاب. فالكلب بأمانته ووداعته أقرب إلى أبي نواس وآلف وأبو نواس في هذه الطردية لم يزد على أن قال، إنه غدا مبكراً إلى الصيد، فدعا فهّاده حتى يهيىء الفهد فجاء به يسوقه أمامه بلونه[5] الذي يجمع بين الأسود والورد:

لما طوى الليل حواشي بُردِهِ   عن واضحِ اللونِ نقيٍّ وَرْدِهِ
ناديتُ فهّادي بَردٌ فهدِهِ   نداءَ من جادَ له بوُدِّهِ
فجاء يُزجيه على سَمَنْدِه   أصفرَ أحْوى بينَ بينَ وردِهِ[6]

وينوه أبو نواس بحسن قد هذا الفهد، واكتمال خلقه، فما أن جاء به الفهّاد حتى طلب إليه أن يردفه وراءه ففعل باسطاً إليه زنده ليتكىء عليها:

---

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص١٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ص١٨٣.

(٣) المصدر السابق نفسه ص١٨٤.

(٤) الحيوان ٦/٤٧١.

(٥) ديوان أبي نواس، ص٦٤٩ ط. الغزالي.

(٦) الأحوى: الأسود، الورد: ما بين الكميت والأشقر.

السمند: الفرس (فارسية) كما ورد في المعجم الوسيط ومعجم الألفاظ الفارسية للمطران الديشير الكلداني، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨.

obeikandi.com

واحـدَ قَدٍّ في اكـمـلالِ قَدِّهِ قلتُ ارتـدفْـهُ فانـثـنـى لِزَنْـدِهِ[٤]

ثم سرعان ما ينتهي أبو نواس إلى الحديث عن صيد الفهد، حين أنجز مهمته بالسرعة الفائقة، فما هي إلا لحظات حتى وقع بصر هذا الفهد على قطيع من بقر الوحش واقف على ماء يشرب على مهل، فانصب عليه الفهد انصباب الشهاب في سرعته واندفاعه فما كان إلا قدر ما يطوى العاد على يديه خمسين، حتى كان الفهد قد أصاب صيده من البقر، فريسة سهلة. وهكذا كنا ضيوفاً عليه، يقرينا مما اجترح بحد سيفيه إشارة إلى أنيابه ومخالبه:

ما كان إلا نظرةٌ من بَعْـدِهِ ونـظرُةٌ أخـرى بأدنـى جُهْـدِهِ
حتـى أرانـا الـعِـينَ دون وِرْدِهِ مُطَّرداً يحـسـو بشـفـرَىْ عِدِّهِ[٢]
فانـصـاعَ مرْقّـداً على مُرْقَـدِّهِ كأنـه حين انـفـرى في شدهِ[٣]
وامـتـد للنـاظـر في مُرْتَـدّه كوكـبُ عفـريتٍ هَوَى لعَـدِّهِ
كمـا انـطوى العـاقـدُ من ذي عَقْـدِهِ خمـسـينَ عامـاً بيدَىْ معـتَـدّهِ
حتـى احـتـوى الـعـينَ ولـمـا يُرْدِهِ فنـحـن أضيافُ حسَـامَىْ غِمْـدِهِ

أما عن الجوارح التي نالت اهتمام أبي نواس فتأتي البزاة في الدرجة الأولى تليها الصقور، فهل كان وراء ذلك نزعة شعوبية، لأن البازي كما يذكر الجاحظ فارسي والصقر عربي؟ خاصة إن المعروف أن أبا نواس لم يكن صاحب بزاة ولا صقور، وإنما كان صاحب كلاب لعب بها زماناً، ويعود اهتمامه إلى وصف الجوارح أنه كان يصف جوارح الخلفاء والوزراء الذين كان يرافقهم في رحلات الصيد[٤].

والبازي أحد الجوارح الأربعة: البازي والشاهين والصقر والغراب[٥] وهو أشرف سباع الطير، به يضرب المثل في نهاية الشرف. وكنيته أبو الأشعث وأبو البهلول وأبو لاحق[٦].

ومن صفاته المحمودة، (أن يكون طويل العنق، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين، وأن

---

(١) اكملال قده: كمال قده.

(٢) يحسو: يشرب شيئاً بعد شيء، الشُفُر: بالضم ناحية كل شيء، العد بالكسر: الماء الجاري الذي لا ينقطع.

(٣) مرقداً: مسرعاً.

(٤) شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري لعبد الرحمن رأفت الباشا: ص١٨٩.

(٥) المصايد والمطارد لكشاجم ص٤٨.

(٦) الصيد والطرد عند العرب ص٤٤.

يكـون فخذاه مسرولين بريش وذراعاه غليظين قصيرين)[1] كما يحمد فيه (صغر الرأس والمنسر وغلظ العنق وسعة العينين ودائرتي الاذنين والشدقين)[2].

وفي نهاية الأرب[3]، ومن صفاته المحمودة أيضاً أن تكون (أشاجع كفيه عارية وأصابعه متفرقة لا مجتمعة مثل كف الغراب وأن يكون مخلبه أسود وأن يكون طويل المنسر دقيقه) ومن خواصه أنه لا يكون إلا منفرداً[4]. ومن فضيلته أنهم قالوا: (أحسن صور ثلاث اجتمعت باز على يد رجل على ظهر فرس)[5].

وهو سهل الانقياد، قابل لتعلم الصيد ولكنه أحر الجوارح مزاجاً لقلة صبره على العطش[6].

ومن عجائبه ألا يكون إلا أنثى، وذكورها من نوع آخر من الحدأة أو الشواهين، ولهذا تباينت أشكالها[7] وهو يصيد الطير ما بين العصفور والكركي[8] والحيوانات الصغيرة كالأرانب وأمثالها.

هذا وقد بلغ مجموع ما قاله أبو نواس في البازي سبع طرديات وبذلك يكون قد احتل الدرجة الثانية من اهتمام أبي نواس في فن الطرد، بعد الكلب مباشرة، وقد ركز على شكله وهيئته، بإلحاح يكشف عن إعجابه بهذا الجارح الفارسي، مبرزاً أهم صفاته الجسمانية، وعليه تمام حليته، ثم يعمد بعد ذلك إلى وصف أفاعيله في الصيد وكيف يكون انقضاضه على طرائده، هذا مع القافية الصعبة التي كثيراً ما اصطنعها أبو نواس في طردياته، وها هو في إحدى طردياته القصيرة يصف البـازي وكأنه ملك متوج في الجو، وقد ارتدى الحلي وفاخر الملابس المذهبة، واكتسى صدره بالـديباج المنقوش، كما يصف هامته ومنسره العظيمين وأنه مولع بصيد الكراكي، فما أن أبصر عشرين منها في مكان يسمى «ذات الصيص» حتى انقض عليها بسرعة عظيمة محدثاً فيها مجزرة مروعة. فذبحوا الكسيرة الأعناق منها، وأبقوا غيرها. فكم في بيتهم من طرائد هذا البازي من صيد معدة للشي... وأخرى نقيعة في الخل[9]:

آلـفُ ما صدتُ من الـقـنـيصِ   بكـل باز واسـع الـقـمـيص

ذي بُرْنُس مذهَّـب رصـيصِ   وهـامـةٍ ومـنْـسـر حصـيصِ[10]

---

(1) الصيد والطرد عند العرب ص٤٦.

(2) المصايد والمطارد ص٥٤ لكشاجم.

(3) ١٠/١٨٧.

(4) المصايد والمطارد لكشاجم ص٥١.

(5) المصدر السابق نفسه ص٥١.

(6) المصدر السابق نفسه ص٤٤.

(7) المصدر السابق نفسه ص٤١.

(8) نهاية الأرب ١٠/١٨٧.

(9) ديوان أبي نواس ص٦٤٧ بتحقيق الغزالي.

(10) الحصيص ـ الخالي من الشعر.

obeikandi.com

وجـؤجـؤ عـوَّل بالـدلـيص مدبَّـج، معـيَّنِ الـفـصـوص[1]
على الـكـراكـي نهـم حريص آنس عشـرينَ بذاتِ الـعِـيص[2]

فانسـلّ عن سكـاره الـممحـوصِ وانـقضّ يهـوى وهـو كالـوبـيص[3]
دانَـى جنـاحـيه إلـى نَصـيصِ فاعـتـام منهـا كل ذي خميص[4]
فقـدّه بمـخـلب قبـوصِ فَكَـمْ ذبـحـنـا ثُمَّ من موقـوص[5]
وكـم لنـا في الـبيت من مقصـوص معـدّةٍ للشـيِّ والـمُـصُـوصِ[6]

وأبو نواس لا يكتم إعجابه بهذا الجارح العجيب. . وإنما يثني عليه باللفظ الصريح «اطريك» مما يدل على شغفه به وإكباره له، وأكثر من هذا، إن اطراءه له شعراً لا كلاماً عادياً، شعراً مرتجلاً يقوله على البديهة، أو شعراً مجوداً قد أحسن صنعته. . !

أُطـريك يا بازيَّنـا وأُطـرِي مرتـجـلاً وفـي حبـير الـشـعـرِ[7]

كما يصفه في إحدى طردياته في تمام هيئته «الطردية» وكامل عدته، وقد ذعر به أقاطيع الطير والوحش فها هو واقف على قفاز بازياره بكفيه السبطين الرحبين، وبراثنه التي تشاكل براثن الذئاب، ووظيفه الفائق الظنوب، وصدره الذي يحاكي وعاء الطيب، وجناحيه الراسخين على منكبيه، وعظامهما الوافية المفاصل وريشهما الجم الكثير:

يوفـى على قفّـازه الـمـجـوبِ منـه بكـف سبـطةِ الـتـرحـيبِ[8]
كأنـهـا براثـنٌ من ذيبِ يَضْـبِـثُـهُـنّ في ثرًى مصـوبِ[9]
إلـى وظـيف فائـق الـظُّـنـبُـوب وجُـؤْجُـؤٍ مثـل مَداكِ الـطِّيبِ[10]

---

(١) الجؤجؤ ـ الصدر، عول: أدل وأعجب، الدليص: المديح المنقوش.

(٢) الكراكي: جمع كركي وهو طائر، ذات العيص: اسم مكان.

(٣) السكار: المحبس، الممحوص: المجلو، الوبيص: البرق.

(٤) النصيص: أقصى السير والحركة، اعتام منها: أخذ خيارها.

(٥) القبص: الأخذ بأطراف الأصابع، الموقوص: المكسور العنق.

(٦) المصوص: لحم ينقع في الخل. (٧) الحبير: البرد الموشى.

(٨) القفاز: كيس يلبسه البازيار بيده وعليه يقف البازي، سبطة الترحيب: شديدة السعة.

(٩) البراثن: المخالب، يضبثهن: يقبض بهن.

(١٠) الوظيف: مستدق الذراع والساق، الظنوب: حرف الساق من أمام، الجؤجؤ: الصدر، مداك الطيب: وعاؤه.

obeikandl.com

تحت جناح مُوجَدِ التنكيب ذي قصبٍ مستوفرِ الكُعُوبِ[1]
وحفِ الظُّهارِ، عَصِلِ الأنبوبِ[2]

ـ ضروب أخرى من الطرد:

لاحظنا فيما عرضنا له من طرديات دارت حول الكلب والفهد والبازي، توافر شروط فن الطرد فيها من طارد (حيوان ضار أو طائر جارح) ومطرود (حيوان غير ضار وطائر غير جارح). ومن عملية طرد أو قنص، ما بين الطارد والمطرود، هذا إلى جملة من الخصائص الأخرى، منها أن تبدأ الطردية بمقدمة، وأن تنتهي بخاتمة، مع اصطناعها لبحر الرجز في معظمها، إلّا أن هناك جملة من الطرديات خالفت هذه المعايير الجمالية التي التزمها أبو نواس في معظم طردياته، من ذلك إنه أدار طرديتين حول الفرس أو الحصان، وهو ليس بحيوان ضار، بل هو حيوان أليف، وإنما احتل مكانة مرموقة عند العرب الأقدمين، لا لأنهم كانوا يصطادون به، بل لأنه كان وسيلة لإتاحة عملية القنص أو الصيد ومطاردة الطرائد، وأحياناً مطاردة الوحوش الضارية، وهكذا دارت حوله أشعار كثيرة تهتم بالجانب الجمالي منه، بجانب القوة وشدة العدو أو متانة الهيكل، ويكاد لا يوجد شاعر جاهلي إلّا وقد نوه بأهمية الحصان في حياته المعيشية والفنية أيضاً.

أما أبو نواس، فقد عاد بنا القهقري إلى العصر الجاهلي أو الإسلامي، حين أولى في طرديتين من طردياته الفرس أو الجواد هذا الاهتمام الفائق على غرار صنيع الأقدمين، خاصة، بعد أن تطور هو نفسه بفن الطرد إلى صورته المتقدمة في طردياته.

أما الطردية الأولى فمقطوعة تقع في ستة أبيات يقول فيها[3]:

قد أغتدِي والصبح محمّرُ الطّررْ والليل تحدوه تباشير السَّحرْ
وفي توالِيه نجُومٌ كالشَّررْ بسَحقِ المَيعة ميالِ العذرْ[4]
كأنه يومَ الرهان المحتضر طاوٍ غدَا ينفضُ صيبان المطر[5]

---

(١) التنكيب: العدول عن الشيء، مستوفر الكعوب: وافيها، والكعوب جمع كعب وهو كل مفصل للعظام.

(٢) الوحف: الشعر الكثير الأسود والجناح الكثير الريش الظُّهار: بضم الظاء الجانب القصير من الريش عصل. الأنبوب: معوجة في صلابة، والأنبوب من القصب والأصح كعبها.

(٣) ديوان أبي نواس ص٦٤٦ ط. الغزالي، ص٢٣٠ أصاف.

(٤) سحق: طويل ـ الميعة: ناصية الفرس، العذر: جمع عذرة بالضم وهي الشعر على كاهل الفرس.

(٥) طاو: لم يأكل شيئاً، الصيبان: المنصب.

عن زفّ ملحاحٍ بعيدِ المنكدَرْ أقنى يظل طيرهُ على حذَرْ[1]
يلذن منه تحت أفنان الشجر من صادق الوعد طروحٍ بالنظر[2]
كأنّما عيناهُ في وَقْبَى حجرْ بين مآقٍ لم تخَرَّقْ بالإبَرْ[3]

يلاحظ أن أبا نواس بدأ طرديته بمقدمة، جرياً على ما دأب عليه في طردياته الأخرى، فقد غدا مبكراً في الصباح والليل لم تزل نجومه تتلألأ أضواؤها ـ على فرس طويل شعر الناصية، ومائل شعر الهيكل ويمضي أبو نواس في تحديد معالم هذا الجواد فيشبهه يوم الرهان.. بجارح جائع ينفض عنه حبات المطر الصبيب، مستطرداً إلى وصف عيني هذا الجارح، وصغار ريشه ونشاطه فهو دائم الحركة، حتى إن الطيور من خشيته تتوارى عنه في الشجر.

فهذه الطردية إذن، لا تعدو كونها وصفاً لقوة الحصان وشدة عدوه، لأنها تكاد تخلو من معنى الطرد الصحيح، الذي يعتمد على الطارد والمطرود، لأن الحصان وهو العنصر الأساسي والأول فيها، لم يكن طارداً كذلك فإن هذه الطردية لم يكن لها تلك الخاتمة التقليدية المتضمنة مصرع الطريدة لفقدانها منها.. !

أما الطردية الثانية التي أدارها أبو نواس حول الحصان فقد بدأها بمقدمة تقليدية أيضاً متحدثاً عن تبكيره إلى الصيد والليل كالحبشي الذي خلع ملابسه فلا تبصر العين منه إلاّ سواده[4].

قد أغتدي والليل في إهَابهِ أدعجُ ما جُرّد من خضابهِ
مُدَثّر لم يَبْدُ من حجابهِ كالحبشيِّ انسلَّ من ثيابهِ

ثم يمضي إلى وصف فرسه، منوهاً بهيكله التام الخلق وهو جواد أصيل ينتمي في نسبه إلى الأعوج فرس بني هلال، أما قوائمه فكأنها قدت من شجر العقو، فهو سباق يسبق الجياد الأخرى، وله هيكل متين البناء وعنق يتكابر به ويتعاظم، وأما حافره فصلب يحميه، عند الجري، من أقرانه:

بهيكل قُوبلَ في أنسابهِ مردِّدِ الأعوج في أصْلابهِ[5]

---

(١) الزف: بالكسر، صغار الريش والمراد بها هنا الشعر. والملحاح الدائم الحركة ـ المنكدَر: بفتح الدال موضع الإنكدار أي الإسراع والانقضاض والانصباب والانتشار ـ والأقنى: المنحنى والمراد بطيره ذبابه.

(٢) يريد بأفنان الشجر خصل شعر الذيل لغزارتها.

(٣) الوقبان: مثنى وقب وهو نقرة العين أو نقرة في الحجر يجتمع فيها الماء.

(٤) ديوان أبي نواس ص٦٥٧ ط. الغزالي.

(٥) الهيكل: الفرس الطويل ـ قوبل: كرم نسبه ـ الأعوج: فرس لبني هلال تنسب إليه كرام الخيل.

يَهْديه مثلُ العقوفي انتصابهِ وكاهلٍ وعنقٍ يأبى بهِ[1]
يصافح اللِّدانَ من أضرابه بِوَقحٍ يقيه في أنسيابهِ[2]
نشا المطاريد، وحدَّ نابهِ حتى إذا الصبح بدا من بابهِ[3]

وبعد وصف قصير لولد النعام مشيراً إلى ضموره وسرعته وقطعه الأرض حزنها وسهلها، يعود أبو نواس مرة أخرى إلى الجواد واصفاً إياه بأنه متزمل بثيابه، ولشدة نشاطه يعاني فارسه، فقلنا له انزع عنه ثيابه، حتى إذا فعل بدا جسم الحصان كالهلال الذي بزغ من وراء السحاب، أو كالسيف الصقيل وقد استل من قرابه[4]:

والطرف قد زمّل في ثيابه قائدُه من أرَنٍ يشقي به[5]
قلنا له عرّهِ من أسلابه فلاحَ كالحاجبِ من سحابهِ
أو كالصنيع استُلّ من قِرابهِ فسدّد الطرق وما هاها به[6]

ويختم الطردية بأبيات أدارها حول مطاردة الظليم وصيده:

فانصاع كالأجدل في انصبابه أو كالحريق في هشيم غابه[7]
ملتهباً يستن في التهابه كأنما البيداء من نِهابه[8]
فحازه بالرمح في أعجابهِ شكَّ الفتاة الدرَّ في أحزابهِ[9]

فهذا الحصان سد أمام الرأل محاولة الهرب، من غير زجر، بل أسرع خلفه إسراع النار في الهشيم وانصب عليه انصباب الصقر على طريدته حتى كأنما البيداء ملك يده يتصرف فيها كيف

---

(١) يهديه: يجعله في أوائل الخيل والفاعل مثل. العقو: الشجر والعقوان خشبتان فيهما الحجور (القاموس المحيط).

(٢) يصافح: يأخذ باليد والقصد يجاري ـ اللدان: جمع لدن وهو الطري اللين من كل شيء ـ الوقح: الحافر الصلب.

(٣) النشا: جمع نشاة وهي الشجرة الصلبة واستعارها هنا للقوائم.

(٤) ديوان أبي نواس ص٦٥٨ ط. الغزالي.

(٥) الطرف: الكريم من الخيل ـ زمل: لف ـ الأرن: النشاط.

(٦) الصنيع: السيف الصقيل. هاها: زجر.

(٧) انصاع: انفتل راجعاً. الأجدل: الصقر.

(٨) ملتهباً يستن: مسرعاً يقمص.

(٩) الإعجاب: جمع عجب وهو أصل الذنب.

شاء، وهكذا أدرك الفارس طريدته، فشكها بسنان رمحه في مؤخرة ظهرها كما تشك الفتاة الدر في سلكه. . !

ويلاحظ أن هذه الطردية أقرب من سابقتها إلى معنى فن الطرد ومفهومه، ولكن يظل الحصان فيها ليس هو الطارد أو القانص، بل هو الوسيلة لإتمام عملية القنص.

وإذا كان أبو نواس اتخذ الجوارح والضواري وسائل للطرد والقنص وهي كائنات حية، طالما أقام الشعراء بينهم وبينها صلات وجدانية فإنه عمد في جملة من طردياته إلى بعض الوسائل الأخرى المادية من غير الجوارح والضواري مثل:

الفخ وقوس البندق والجلاهق التي أصبح لها في العصر العباسي مكانة مرموقة مع التقدم الحضاري في جميع جوانب الحياة ومنها آلة اللهو واللعب، كالكرج التي كان الأمين مغرماً بها أشد الغرام[1]. ومثل لعبة الشطرنج والنرد والرمى بالنشاب والصيد بالبندق ولعبة الجوكان والصولجان والجريد ولعبة الكريكيت والتنس[2] وكانت تسمى لعبة «القراح» لذلك فليس غريباً أن تتطور وسائل الصيد في هذا العصر ومنها الصيد بقوس البندق، بما تتناسب مع مكانة من يزاولونه من علية القوم.

والبندق كرات صغيرة تصنع من الطين أو الرصاص ولقد ظهرت في أواخر عصر عثمان فاستنكرها الناس ثم ألفوها وصارت تستعمل في الصيد[3] يقول الجاحظ: (وكل قوس بندق فإنما جيء بقناتها من بَرْوَض، ومدح ببريها وصنعتها عصفور القواس. .)[4].

ويشرح لنا «الجواليقي» معنى البندق فيقول: الذي يرمي به الصبيان، وهو الطين المدور المدملق يرمى به عن القوس، فارسي وأصله بالفارسية جلاهة، الواحدة جلاهقة والاثنتان جلاهقتان. .)[5].

أما الطردية[6] فقد استهلها أبو نواس بوصف جو منطقة الصيد بالحديث عن الروضة حيث يكثر الصيد من الطيور، فهي روضة مكتظة بالأشجار، تتردد في جنباتها أصوات الطير المختلفة وكأنها

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٥٢٤.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي، لحسن إبراهيم حسن، ٢/ ٣٢٢-٣٢٤.

(٣) الصيد والطرد في الشعر العربي لعباس مصطفى الصالحي، ص٢٣٦.

(٤) البيان والتبيين، ٣/٩٣ ط. رابعة.

(٥) المعرب ص١٤٤.

(٦) ديوان أبي نواس ص٦٦٨ ط. الغزالي.

لغط كتاب الدواوين وهم يسجلون حساباتهم ويقولون ثلاثة أربعة خمسة. . ! ثم يمضي فيقول إنه وافى هذه الروضة مبكراً والشمس لم يذر لها قرن بعد ولا خرج مقرور للاستدفاء بأشعتها[١]:

وارفــةٌ للطير في أرجــائــهــا كلغط الـكُـتّــاب في اسـتـمـلائهـا
أشــرفْتُهــا، والشمسُ في خِرشــائهـا لم يبــرز الـمقــرورُ لاصــطلائهــا[٢]

ثم يصف قوسه قائلاً إنها شظية شقت من الأشجار. بقاء الصائد ومكثه رهن ببقائها ومكثها أي آلة الصيد[٣].

بشــقــةٍ طولُــكَ في إبــقــائــهــا إذا انــتـحـى النّــازعُ في انتحــائهــا

وهي آلة صيد جيدة الصنع، قام ابن عصفور ببريها فإذا رمى بها القانص لا يخشى من تشقق في ظهرها أو لم يخف بجذبه لها أن يكسرها:

لم يرهـب الـفـطورَ من سيســائـهــا يعــزى ابن عصفــور إلى بُرائهــا[٤]

ويستمر أبو نواس في حديثه عن هذه القوس مذ كانت عوداً ندياً، والقوّاس ينتظرها على مهل حتى جفت وصلبت واستوت قوساً جيدة.

حَتّــى تأنّــاهــا إلــى انــتـهــائـهــا واستــوسق القشــرُ على لحــائهــا[٥]
وشُــمِّـســتْ فيبــســتْ من مائـهــا فالـحسنُ والجــودةُ من أسمــائهــا[٦]

ثم ينتقل إلى وصف البندق بعد هذا الإغراق المعجز في الغريب وكأن الشاعر قد قصد قصداً إليه، بل كأنه هو الهدف وهو الغاية، وهو إغراب واضح فيه الافتعال الشديد (وكأنه مجبور على

---

(١) ديوان أبي نواس ص٦٦٨ بتحقيق الغزالي.

(٢) الخرشاء: قشرة البيضة العليا.

(٣) (في طبعة فاغنر ٢/٢٣٢ وبغداد ص ٢٤٢ ورد صدر هذا البيت هكذا:
«بشقّة طَوْلُكَ في إيفائها». والشقة: شظية من لوح ومن العصا وغيرها ما شق مستطيلاً، **طولك: بقاؤك ومكثك.**
وهو يريد بذلك آلة الصيد.

(٤) غلبتُ هنا رواية الأصبهاني ط. فاغنر، ورواية الصولي ط. بغداد في صدر هذا البيت. والفطور: **التشقق**، السيساء: الظهر، فليس يخشى إذا جذبها أن تنشق لجودتها. وابن عصفور قواس صديق لأبي نواس.

(٥) تأناها: تمهل عليها، استوسق القشر: اجتمع.

(٦) شمست: عرضت للشمس لتتخلص من مائها فتصلب وتشتد.

أداء عمل مطلوب منه .أداؤه فاجهد نفسه واتعب سجيته)[1]. بل أجهدنا معه كثيراً وأجهد مواهبنا الذوقية . . !

أما البنادق فقد أحكم صنعها من طين متماسك لم تخالطه الرمال، فهي سواء في الجودة، بعيدة المرمى فتصيب الطير مهما علا:

ثم ابتذرنا الطيرَ في اعتلائها ... بنادقاً تعْجبُ لاستوائها[2]
من طينةٍ لم تدْنُ من غَضْرائها ... ولم يخالطْها نقَا ميثائها[3]
لا تُحوِجُ الرامي إلى انتقَائِها ... فهي تُرَاقي الطيرَ في ارتقائها[4]

وأخيراً يأتي وصف الصيد، فيقول إن هذه القوس إذا أطلقت بنادقها تتلظى كالنار فتطيح بالطير بمختلف ألوانه وأنواعه إلى الأرض مصرعة ممزقة الأحشاء:

مثلَ تلظّى النارِ في التظائها ... من سُود أعجازٍ ومن رَهَائها[5]
طراحةٌ للحُوت من جَرْبائها ... مرثومةُ الخطم بطينِ مائها[6]
ترفل[7] في نعلين من أمعائها ... يحطها للأرض من سمائها

. . .

وفي ختام هذا الفصل من الحديث عن الطرد عند أبي نواس لا يفوتنا أن نتوقف عند طردية لعلها ذكرت مجازاً في باب الطرد من ديوان الشاعر، وهي تلك الرجزية التي أدارها أبو نواس حول اللعب بالصوالجة، ذكر حمزة الأصفهاني[8] (عن محمد بن عبدالله بن المغيرة قال: خرج أبو نواس يوماً مع العباس بن موسى الهادي إلى عيسا باذ فوجد في الميدان زهير بن المسيب بن زهير

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص٣١١.

(٢) البنادق: الذي يرمى به الواحدة بندقة.

(٣) الغضراء: الأرض فيها طين حر، نقاميثائها: النقا القطعة من الرمل، الميثاء: الأرض السهلة.

(٤) تراقي الطير: ترتفع معها.

(٥) رهائها: الرهاء كسماء الواسع.

(٦) الجرباء: السماء أو الناحية التي يدور فيها فلك الشمس والقمر، مرثومة الخطم: مكسورته وعليه دم لطخ به كذلك.

(٧) ترفل: تسير.

(٨) ديوان أبي نواس، ٢/٢٥٧ بتحقيق فاغنر.

والصقر بن مالك الخزاعي يلعبان بالصوالجة فدخل مع القوم فصاروا حزبين فغلبهم، ثم أكل معهم وشرب فلما طرب قال هذه الأرجوزة. وقال يصف الطبطاب [1] ونثبت فيما يلي الأرجوزة [2] :

قد أشــهــد الــلهــو بفــتــيان غُرَرْ ... من ولــد الــعــبــاس ساداتِ الــبشــرْ
ومــن بنــي قحــطانَ والــحــيُّ مُضَــرْ ... من كل مألــوف كريم الــمعــتصَــرْ [3]
زيّنَ حســنَ وجــهــه طيبُ الــخبــر ... على جيادٍ كتمــاثيل الــصــورْ
من كُلِّ طِرْفٍ أعــوجــيٍّ [4] قد ضمَــرْ ... لم يكــوه الــبيطارُ من داء الــحَمَــرْ [5]
جنٌّ على جنٍ وإن كانــوا بشــرْ ... كأنــمــا خيطوا عليهــا بالإبــرْ
أو سُمّــر الــفــارس فيهــا فانــســمــر ... بين رياضٍ مثــلِ موشــيِّ الــحــبَــرْ
مكــللاتٍ ببــهــاءٍ وزهــرْ ... فانــتــدبــوا في يوم قُرٍّ وخــصَــرْ
إذ ذر قرنُ الــشــمس في غِبِّ مطرْ ... صَوالــجــا يصــبُــو إلــيهــا من نظَرْ
محــنيةً أطــرافُــهــا فيهــا زوَرْ ... قدّرهــا شابــرُهــا لمــا شَبَــرْ [6]
فلم يَعِــبْ طولاً ولا شانَ قِصَــرْ ... وقــد تنــادَوْا فتــرامــوا بالأُكَــرْ [7]
مدمــجــةِ الأركــانِ ملســاءِ الــطُّرر ... شدّد صَفْــقَــي متــنهــا حَشْــوُ الشَّعــر [8]
أحــكــمــهــا صانــعُــهــا لمــا فطَرْ ... ألــطف بالاشــفــاء خَرزًا إذ دَسَــرْ [9]
فليس للإشــفــاء بالــجِــلْدِ أثَــرْ ... يُحْــسَــبْــنَ تفــاحــاً تدَلَّــى من شجَــرْ
حتــى إذا ما أغــلق الــقــومُ الــخــطَرْ ... ووكّــلوا بالــبَــزِّ مقــدامــاً ذكَــرْ [10]

---

(١) الطبطابة: خشبة عريضة يلعب بها بالكرة. والطبطاب طائر له أذنان كبيرتان (القاموس المحيط). ويذكر فيليب حتي ٢/٤١٦ أن لعبة الطبطاب قد تكون هي لعبة التنس.

(٢) ديوان أبي نواس ٢/٢٥٦، ٢٥٧ بتحقيق فاجنر.

(٣) كريم المعتصر: جواد عند السؤال.

(٤) الأعوجي: نسبة إلى أعوج فرس كان لبني هلال تنسب إليه الأعوجيات.

(٥) الحَمَرْ: بفتحتين ـ داء يعتري الدواب من كثرة أكل الشعير فتنتن أفواهها.

(٦) الزور بالتحريك: الميل.

(٧) الأكر: جمع أكرة، وهي لغة في الكرة.

(٨) الصفقان: مثنى صفق وهو الجانب.

(٩) الاشــفـاء: بالمد للضرورة ـ مثقب يخرز به الجلد ـ ودسر: أدخل الأشفى في الجلد، وفطر: شق.

(١٠) البز: الغلبة والقهر.

مُجرَّباً يومَ الرهان المحتضَرْ فضّله حِذْقٌ وضربٌ مشتهَرْ
ولم يجُرْ فيهم ولا العين فتَرْ واستقدم القومَ رئيسٌ ذو خطرْ
بكرةٍ دحَابها ثم زجَرْ فانحدرت كالنجم ولى فانكدَرْ
رَفْعاً ووضْعاً أيُّما ذاك استقَرْ تُدْفعُ بالضربِ إذا الضّربُ اسْتمَرْ
تدافُعَ النَّبلِ بإزعاج الوتَرْ فكم ترى فيهم حَليماً ذا وقَرْ
إذا أجادَ الضربَ فدّى ونعَرْ وعطعط المرء الذي يرجو الظَّفَرْ[1]
واكتأبتْ نفسُ الذي خاف الغِيَرْ وأيقنوا أن قد علاهم وقهَرْ
حتى يفوز بالرهان من قمَرْ يُساء هذاك وهذاكَ يُسَرْ

كذلك الدهر وتصريف القدر

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن لعبة الصوالجة التي تدور حولها أرجوزة أبي نواس من الألعاب التي كان العباسيون يزاولونها خارج المنازل[2]. وفي هذه اللعبة يتساوى الملك مع بطانته من غير نقص عليه ولا ضعة في ملكه [3].

هذا ويعود الفضل إلى المرحوم زكي مبارك الذي نبه إلى هذه الأرجوزة وما فيها من معان جميلة حين حاول أن يقارن بينها وبين أرجوزة لأحد الشعراء المحدثين أدارها أيضاً حول لعبة كرة القدم[4].

أول ما يتراءى لنا في أرجوزة أبي نواس ابتعادها عن الغريب مع عذوبة في اللفظ وسلاسة في الأسلوب، في حين كانت أراجيز طردياته موغلة في الغريب، كذلك فإن هذه الأرجوزة خالية من أي معنى من معاني الصيد والطرد بمفهومهما التقليدي، مع أن المباراة التي أدراها أبو نواس بين فريقين من الأصدقاء يشارك فيها هو، انتهت بظفر أحدهما، ولكن من غير دماء سفكت بل أعقب اللعب الطعام والشراب والطرب. ولكن أبا نواس استطاع أن يخرج لنا من نتيجة تفوق أحد الفريقين، وهزيمة الفريق الأخر بحكمة ساقها إلينا في ثوب من النظم الرقيق، كقوله وهو يصف فرحة الغالب، وكآبة المهزوم:

إذا أجادَ الضربَ فدّى ونعَرْ وعطعط المرءُ الذي يرجو الظَّفَرْ

---

(١) عطعط: صاح.
(٢) تاريخ العرب (مطول) لحتي ٢/٤١٦.
(٣) التاج. للجاحظ، ص٨٠.
(٤) الموازنة بين الشعراء، لزكي مبارك، ص٣٣٠.

واكـتـأبـتْ نفسُ الـذي خاف الـغِـيَرْ وأيقـنـوا أن قد علاهـم وقـهَـرْ
حتـى يفـوز بالـرِهـان من قمَـرْ يُسـاء هذاك . وهـذاكَ يُسَـرْ
كذلك الدهر وتصريف القدرْ

وتبقى ثلاثة جوانب من هذه الأرجوزة لا بد من التنويه بها أجاد أبو نواس وصفها من غير أن يبعد عن المعاني والمباني التي سلكها في طردياته الأخرى:

أولها: وصفه للسادة «الفتيان الغرر» الذين اشتركوا في اللعب، فهم ما بين عباسي من سادة البشر، وقحطاني أو مضري مشهور بجوده وكريم عنصره:

قد أشـهـد الـلهـو بفـتـيانٍ غُرَرْ من ولـد الـعـبـاس سادات الـبـشـرْ
ومـن بنـي قحـطان والـحـي مضـر من كل مألـوف كريم الـمـعـتـصـرْ
زيّن حسـن وجـهـه طيب الـخـبـر على جياد كتـمـاثـيل الـصـورْ

الثاني: إن اللعب دار والفتيان الغرر ثابتون على ظهور الجياد، ويصفهم أبو نواس بأنهم جن فوق جن قد سمروا على تلك الجياد فلا سبيل لزحزحتهم عن كواهلها:

من كُلِّ طِرْفٍ أعـوجـيٍّ قد ضمـر لم يكـوه الـبـيطارُ من داء الـحَـمَـرْ
جنٌّ على جنٍ وإن كانـوا بشـرْ كأنـمـا خيطوا عليهـا بالإِبَـرْ
أو سُمّـر الـفـارس فيهـا فانـسـمـر بين رياضٍ مثـلِ موشـيٍّ الـحـبَـرْ

الثالث: هذا الوصف البديع للكرة ومهارة صانعها، حتى لا يكاد يبين أثر للخرز فبدت كأنها التفاح تدلى من الشجر:

محـنـيةٌ أطـرافـهـا فيهـا زوَرْ قدّرهـا شابـرُهـا لمـا شَبَـرْ
فلم يَعِـبْ طولاً ولا شانَ قِصَـرْ وقـد تنـادَوْا فتـرامـوا بالأُكَـرْ
مدمـجـةِ الأركـان ملسـاءِ الـطُّرَرْ شدّد صَفْـقَـيْ متنـهـا حَشْـوُ الـشَّـعـرْ
أحـكـمـهـا صانـعُـهـا لمـا فطَرْ ألـطف بالأشـفـاء خَرْزاً إذ دَسَـرْ
فليس للإشـفـاء بالـجـلد أثَـرْ يُحْـسَـبْـنَ تفـاحـاً تدَلَّـى من شجَـرْ

ويلاحظ من هذا العرض لأهم ما تضمنته هذه الأرجوزة العجيبة، إنها إذا كانت تجوس خلال المجال الـذي انبثقت عنـه الطرديات، إلا أنها مثلت تطوراً واضحاً بالأراجيز الطردية من شعر

بدوي[1] إلى شعر حضري، بالرغم من اتخاذها بحر الرجز شكلاً، والفكرية العامة التي تقوم عليها الطردية التقليدية منهجاً . . !

ولعله قد اتضح لنا بعد هذا العرض لطرديات أبي نواس أن شاعرنا في طردياته أكثر ما يكون التزاماً بالثوابت الفنية التي استمرت، كذلك فقد حفلت هذه الطرديات بجم وافر من الألفاظ الغريبة كما لم يحفل فن آخر من فنونه التقليدية، هذا إلى دلالة هذه الطرديات على معرفة الشاعر الواسعة بجـوارح الصيد وضواريه خاصة الكلب منها، وعلى خبرة بأحوال البادية المعيشية والاجتماعية، وأيضاً دلت هذه الطرديات على عناية الطبقة المترفة في المجتمع العباسي بالصيد كإحدى الوسائل الترفيهية الكثيرة حينئذ لما يتكلف الصائد من آلات ومن جوارح وضوار وخيول، ولذلك ارتبط الصيد لدى المترفين بالسخاء لما يتطلبه من نفقات باهظة.

وأيضاً فقد كشفت هذه الطرديات عن ملكة في الوصف عند أبي نواس جعلت من فن الطرد يقف في محاذاة فن الخمر من حيث قدرة الشاعر على التصوير والتمثيل.

---

(١) تاريخ الأداب العربية، لنلينو، ص١٩٣.